مفاهيم إسلامية

بقلم

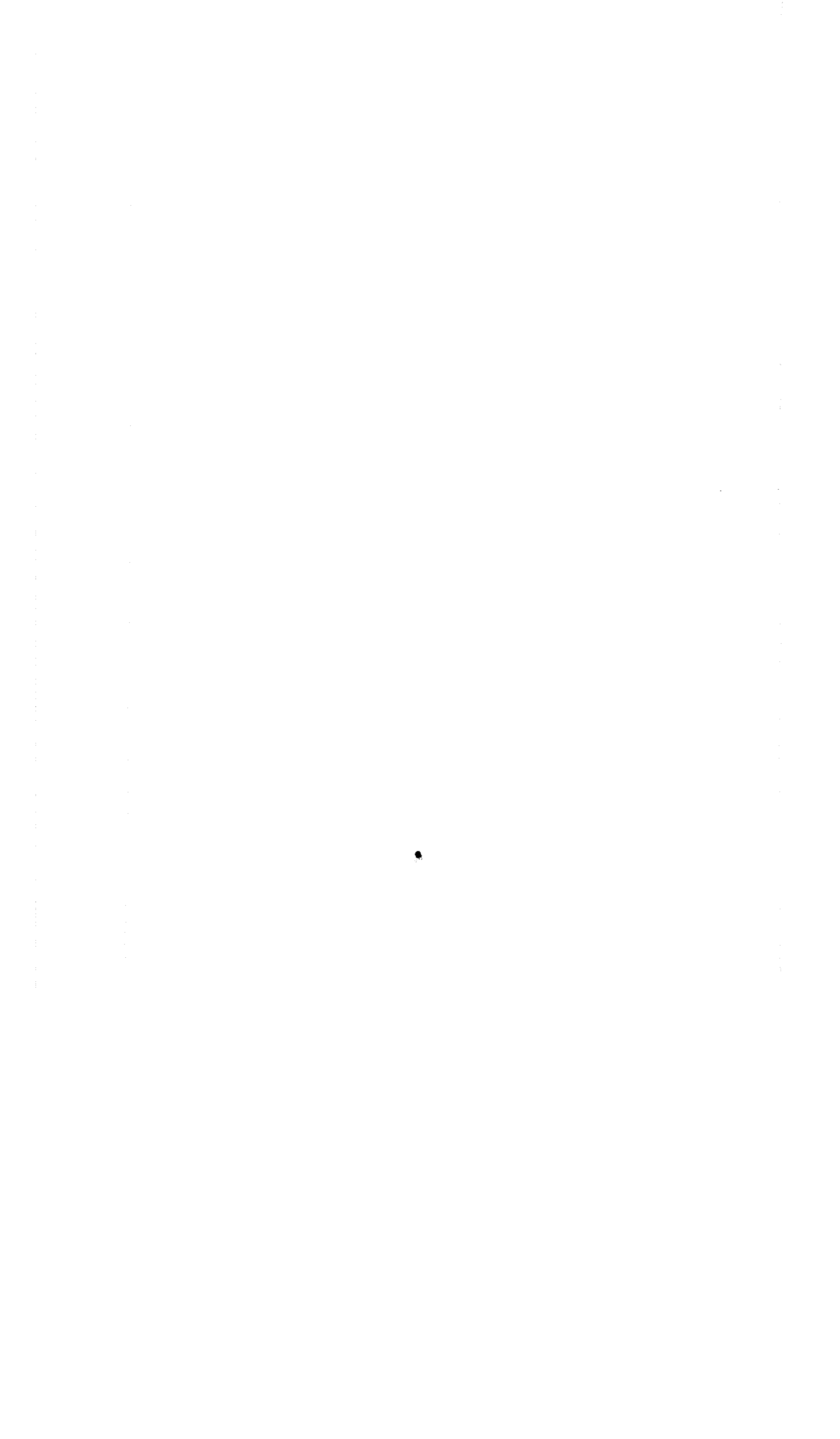
أ. علي القاضي



الطبعة الأولى

سنة ١٤٢٤هـ - سنة ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

جاء الإسلام لكي ينظم كافة شؤون الحياة المدنية والثقافية ويهيمن عليها ويمنحها الطابع والصيغة ، وبذلك يشكل حضارته الخاصة به والتي تستمد مقوماتها من نسيجها الخاص بل وتستمد كينونتها من مكوناته وموجهاته وخصائصه ، لقد أعاد الإسلام صياغة العقل البشري بما جعله قادرا على الفعل الحضاري من خلال التزامه بالشروط والمنهج والإبداع .

وفي العصر الحديث أصبح من أهم مشاكل العالم الإسلامي أنه وقف من الحضارة الغربية موقف المستقبِل لا المرسِل وموقف الزبون الذي يستورد ويستهلك ويغير من مفاهيمه وأفكاره وأخلاقه لأن الإلحاح المستمر عليه جعله لا يدري ما يفعل ولا ما يصلح له وما لا يصلح كما قال الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي : " نعم إن العالم الإسلامي يستورد الأدوات الاستهلاكية ويستورد معها الأفكار الغربية ، ولذلك فإننا نسير في طريق الانتحار الثقافي الصامت ".

ومع ذلك فإن المثقفين المسلمين الذين يتميزون بالوعي والفهم وإدراك الأمور ويعرفون الطريق السليم ويبصروننا بالمستقبل لا نأبه لهم ، بل إننا نتهمهم بتهم مختلفة ونحاول أن نجعلهم لا يتحركون إلا في إطار محدود ، فإن سلموا من الاجتياح الثقافي فلن يكون لهم تأثير في مجتمعاتهم ، وتضيق حرية الإنسان المسلم وتضيق حتى الاختناق .

والمسلم الآن تائه فإذا قام الغرب بإعادة بنائه ثقافيا فإن الصناعة الثقافية التي لا نملك منها شيئا أولا نملك منها إلا القليل تصبه قوالب يريدونها فيصبح نسخا مكررة من الأهواء والآراء الغربية .

ولقد نبهنا لذلك رجاء جارودي الفيلسوف الفرنسي الذي دخل في الإسلام فقال : " إن أهم ما قام به الغرب في البلاد الإسلامية محاولة إدخال المسلمين في الأفكار الغربية – وقد نجح في ذلك إلى حد كبير – وكان من نتائج ذلك أن أصبح الكثيرون من أبناء المسلمين يتحدثون بلسان الغربيين ".

وتيار العصرية كان يدعو أنصاره إلى محاكاة الغرب وأصبح يستورد أفكاره وعلى رأسها الوطنية بعد أن اصطنعت أوربا الحدود المزيفة ، وفي دنيا الثقافة تهدف العصرية إلى تبني فلسفة الغرب الهادفة إلى أن يسير العالم الإسلامي على منهج الغرب ، يقول جارودي : " وقد أدى هذا التيار بالمسلم إلى أن أصبح غريبا عن نفسه وأهله وتاريخه وثقافته ومصيره " ، فما يطلبه أنصار هذا التيار من العالم الإسلامي هو نقل أسلوب التطور في الغرب بحذافيره أي العودة إلى الوراء نحو قرن ونصف .

وحين كنت مدرسا في جامعة قطر جاء خبير أمريكي في التربية ليعطينا من علمه وتجاربه ، وفي جلسة له مع طالباتي أخذ يتحدث عن الحرية وأفاض فيها ، حتى أعجبت طالبات الجامعة بذلك وفرح هو بذلك ، وأعطاهن عنوانه في أمريكا ليتصلن به عند زيارتهن أمريكا ، وهنا بدأت أسهم بدوري في هذا الحديث فقلت له : " ما مفهوم الحرية في أمريكا ؟ ، قال : أن يفعل الإنسان ما يريد ما دام لا يخالف القانون ولا يعتدي على حرية غيره ، قلت له : إذن فمن حق أي إنسان أن يشرب الخمر مع أن الخمر مضرة بالصحة وبالمال ، ومن حق أي فتى وفتاة ممارسة الزنى بالاتفاق ، ومن حق أي فتاة وفتاة ممارسة السحاق بالاتفاق ، ومن حق أي فتى وفتى ممارسة اللواط بالاتفاق ، لكن مفهوم الحرية في الإسلام يختلف عن هذا اختلافا واضحا ، فما حرمه الله تعالى ليس للإنسان حرية فيه ، فالخمر حرام والزنا حرام والسحاق حرام واللواط حرام وهكذا .

ثم تناقشنا عن بعض التعبيرات الشائعة في الغرب ؛ مثل غزو الصحراء والانفجار المعرفي ، وقلت له : إن هذه التعبيرات نابعة من الحضارات القديمة الإغريقية والرومانية وعنها أخذت الحضارة الغربية هذه المفاهيم بدون أن تتنبه إلى أخطائها ، فالحضارة الإغريقية القديمة والحضارة الرومانية القديمة قامتا على أساس أن هناك صراعا بين الآلهة بعضهم مع بعض وبين البشر بعضهم مع بعض وبين البشر وبين الآلهة فالحياة كلها صراع دائم ، لكن الإسلام قام على أساس المحبة والمودة بين الناس بعضهم

مع بعض وبين الإنسان وكافة المخلوقات ، والإسلام يرى أن الكون وما فيه صديق للإنسان إلى درجة أن أهل الكهف هربوا ولجؤوا إلى الكهف ليحتموا فيه ، والرسول ﷺ اختبأ في غار حراء هروبا من أهل مكة ، وقال : أُحُدٌ جبل يحبنا ونحبه .

ونحن حين نعمر الصحراء فإنها لا تقاومنا ، والمعرفة حين تتراكم لا تتكون قنبلة تنفجر فينا، ومن هنا كانت هذه التعبيرات خاطئة ، فقال : وما قولك في غزو الفضاء ؟ قلت له : الفضاء من الكون والكون صديق للإنسان فنحن نرتاد الفضاء ولكننا لا نغزوه ، فقال في لهجة تعجب : " لو أدرك الأمريكيون هذا لكان تلوث البيئة أقل " .

وهكذا نرى أن الغرب في حاجة إلى أن يدرس المفاهيم الإسلامية ليعرف أخطاءه ، وبذلك يبدأ صفحة جديدة في حياة تعود عليه بالنفع والخير وعلى العالم كله بالفائدة الواضحة .

ونحن الآن في القرن الخامس عشر الهجري وعلينا أن نبدأ صفحة جديدة لنعرف الإسلام على حقيقته ونعرف وظيفة المسلمين في هذه الحياة ، فلا يصلح لكل زمان ولكل مكان إلا الإسلام ، ذلك لأنه من الله تعالى خالق البشر وهو أعلم بما يصلحهم وما يصلح لهم .

وهذا الكتاب محاولة لإلقاء الضوء على بعض المفاهيم الإسلامية لبعض الكلمات والتعبيرات السائدة ، ذلك لأن الثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرة على التفكير والتنفيذ ، وقد أصبحت الثقافة صناعة لأن أجهزة الإعلام الغربية التي تسيطر عليها بنفسها أو عن طريق أجهزة الإعلام في الدول الإسلامية ، تحدث التمزيق الداخلي للهوية الحضارية الإسلامية وتصل الاتجاهات الثقافية بالأهداف الزائفة .

إن قتل الفكر جريمة أشد من جريمة قتل الجسد لأنه يجعل الإنسان مجرد حيوان دون هوية ، ويجعل القيادة لكل متسلط ، ونحن الآن أمام تحدّ حضاري غريب يريد أن يفقدنا هويتنا وأن يجعلنا نسخا مكررة لشعوب مستهلكة مستذلة مستعبدة لصالح الغرب ، وعلينا أن نضع الخطة التي تكفل

لنا الإفلات من هذا المخطط ولن نتمكن من حماية ثقافتنا ومفاهيمنا وأخلاقنا إلا بالإيجابية التي توفر شروط التكوين والنمو لبناء إسلامي ثقافي متميز .

لذلك رأيت أن أعرض على القارئ بعض الألفاظ التي تختلف الحضارات في فهمها وفي تطبيقها ، والتي جعلت المفاهيم الغربية تنتشر في مجتمعاتنا الإسلامية ، ولأُبين الفهم الإسلامي السليم حتى نستطيع أن نسير على المنهج السليم متبعين قول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام:١٥٣) ، وبذلك ننقذ أنفسنا مما يراد بنا ونستطيع أن نؤدي وظيفتنا في هذه الحياة فننقذ هذا العالم الحائر التائه الذي يسير إلى الهاوية ...

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل ...

مفهوم السعادة

السعادة : تعبير يقصد به راحة البال وهدوء النفس والرضا الكامل والبهجة والسرور والاطمئنان .

ترى ما الذي يجعل الإنسان يحس بالسعادة ؟ ... سؤال يختلف الناس في الإجابة عليه تبعا لرغباتهم ، أو سيرا وراء اتجاهات المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان ، أو الأسلوب الذي تربى عليه الناس .

والإمام أبو حامد الغزالي يقول : إن سعادة كل شيء تكون بمقتضى طبعه ، وطبع كل شيء ما خلق له ، فلذة العين في الصورة الحسنة ، ولذة الأذن في الأصوات الطيبة وهكذا ... ويرى الإمام الغزالي أن السعادة الحقيقية تكون في مجاهدة النفس وكبح جماح قواها ، وأن من انتصر في الجهاد الأكبر – جهاد النفس – نال السعادة في الدارين .

والأستاذ محمد أحمد جاد المولى رحمه الله تعالى يقول في كتابه (الخلق الكامل) : " إن الناس يرون السعادة في الثروة الهائلة والصحة الشاملة والمناصب السامية والدرجة العالية والشهرة أو توفر هذا كله ".

الفقير يرى أن السعادة في الثروة والمال الكثير .

والمريض يرى أن السعادة في الصحة والسلامة .

والذليل يرى أن السعادة في التمكن من الحياة كلها .

والخليع يرى أن السعادة في التمكن من الشهوات كلها .

والعاشق يرى أن السعادة في الظفر بالمعشوق .

والخيِّر يرى أن السعادة في إفاضة المعروف على المستحقين .

والبدوي يرى أن السعادة في الانطلاق والتمتع بالحريات حيث يوجد صفاء القلب وعزة النفس .

ومعنى ذلك أن الإنسان لا يجد السعادة فيما يفتقده ، وهي ناحية شخصية جعلت شاعرا بدويا يهتف :

لا تسقني مـــاء الحيـــاة بذلـــة   بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

مـــاء الحيـــاة بذلـــة كجهنـــم   وجهنـــم بالعـــز أطيب موئـــل

كما جعل شاعرة بدوية انتقلت إلى مدينة بغداد عاصمة الخلافة في ذلك الوقت ، وقد تزوجت بأمير يملك المال والجاه وكل ما تتمناه النفس البشرية ، تعاف هذا كله لأنها تربت على العزة والكرامة ، ولم تجد في بغداد شيئا من هذا فقالت :

لَبَيْتٌ تخفق الأرواح فيه	أحب إليّ من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني	أحب إليّ من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في قعر بيتي	أحب إليّ من أكل الرغيف
خشونة عيش في البدو أشهى	إلى نفسي من العيش الطريف

تُرى ما مفهوم السعادة في الإسلام ؟

الإسلام يرى أن هناك سعادة دائمة وهناك سعادة زائلة .

السعادة الدائمة تكون في الدار الآخرة وينالها الذين آمنوا وعملوا الصالحات وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (هود:١٠٨) .

وأما **السعادة الزائلة** فهي نوعان : سعادة حقيقية وسعادة زائفة .

فالسعادة الحقيقية في الدنيا يملكها أصحاب النفوس المطمئنة، وهم الذين آمنوا بالله وحده ، وساروا على منهجه وحده ، وحققوا وظيفتهم في عمارة الأرض طبقا لمنهج الله تعالى ، وبذلك يرضون عن أنفسهم ، ويرضى الله تعالى عنهم ، وتكون سعادتهم في الدنيا بالرضا المستقر في أعماق النفس فلا تتبدل ولا تزول في كل الأحوال مهما كانت الظروف وذلك مقياس الإيمان الصحيح . ومن هنا نرى أن السعادة في الإسلام ربانية المصدر والغاية منضبطة أخلاقيا وتشريعيا .

والنفس المطمئنة تكون راضية بالقضاء ، صابرة على البلاء ، مخلصة في العمل ، قانعة بعطاء الله تعالى ، فيها المناعة الكاملة من أمراض القلب

والنفس فلا حقد ولا حسد ولا إضرار بالآخرين ولا أنانية ولا طمع .

وإلى جانب ذلك فإن المسلم يحس بالأخوّة الحقيقية لكل فرد من أفراد المجتمع ويعمل على التلاحم الأخوي بدون حدود ، كما يُؤْثِر إخوانه على نفسه ولو كان به خصاصة ، والمؤمنون يتعاونون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

وبذلك يبتعدون عن القلق والاضطراب والتمزق والهم والحزن ، وبهذا الانضباط تتحقق السعادة بعيدا عن ضغوط الشهوات على النفس البشرية ، ولذلك فإن الإسلام يوجه المسلمين إلى الاتجاهات التي تحقق رضا النفس وسعادة القلب ، فيطالبهم بالاعتصام بحبل الله تعالى وبالإصلاح بين المتخاصمين ، لأن المؤمنين أخوة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

والسعادة الحقة تكون في البعد عن الأمراض المعنوية ، وبذلك يكونون في صلاح دائم ، تشع في نفوسهم البهجة والاطمئنان مهما كان حظهم من أمور الدنيا .

السعادة الزائفة : الحضارة الغربية ترى أن تحقيق الذات وإشباع الطموحات الفردية والأخذ بأكبر قدر من متاع الحياة الدنيا بدون حدود هو السعادة ، لكن هذه السعادة في حقيقة أمرها ما هي إلا سعادة زائفة عمرها قصير ومتطلبات تحقيقها ترهق النفس البشرية وتترك الإنسان للتمزق والضياع ، وهذه السعادة يستحقها الكفار فقط ، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (محمد:١٢) .

والسعادة الزائفة ينشرها شياطين الإنس والجن ويدعون لها ، وتتمثل في الإفراط في اللذة الحسية والاستجابة للشهوات والتهافت على تحقيق الذات بكل الوسائل دون مراعاة للضوابط الأخلاقية ودون صلة بالله تعالى لأنها تقوم على فلسفات الفوضى والانحلال ، يقول سارتر زعيم المذهب الوجودي : " العَالَم كله خداع ، وإننا موجودون بلا داع ، والعالم كله يمضي

بغير غاية " .

وبمثل هذه الأقوال تقوم دعائم السعادة الزائفة ، وهي لا تحقق للنفس البشرية شيئا من الراحة والاطمئنان ، إنها الملل والقلق والحيرة ، وهذا ما قاله الباحثون الغربيون مستشهدين بشعارات هذه المذاهب : " اليوم كغد ، والغد كبعد غد ، وإنه لا طعم لشيء ولا لذة ولا أمل في أي شيء " ، ويقول المفكر الغربي الاشتراكي " أندريه فليب " : " إن الصراع هو المظهر الرئيسي لكياننا الاجتماعي ، وإن أي صراع في المجتمع ينعكس على الأفراد ويسبب لهم الضيق والتأزم النفسي ، وسرعان ما تمل الحياة ويصيب الإنسان الشقاء ، فمنهم من يلجأ إلى المهدئات والمخدرات ومنهم من يلجأ إلى الانتحار على الرغم من وفرة ما لديهم من الماديات ، ولكنه عذاب القلق المستمر والحيرة الدائمة " .

ومشكلة السعادة الزائفة توجد في علاقة الانفصال التام بين الناس وبين الأشياء ، كما تجعل نظرة الإنسان إلى غيره نظرة غير إنسانية ، فالمهم امتلاك الأشياء لا استخدامها ، وبذلك يشبّع إنسان الحضارة الغربية الوهم .

المصائب وهل تخرج الإنسان عن سعادته الحقيقية ؟

سؤال يجيب عليه الفيلسوف المسلم ابن مسكويه فيقول : " المصائب لا تخرج الإنسان عن سعادته لأن الابتلاء سُنّة جارية للمؤمن " .

ونلاحظ أن القرآن الكريم يركز على ذلك حتى يربي المؤمنين تربية تجعلهم قادرين على أداء وظيفتهم في الدنيا فتتحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة ، يقول الله تعالى:﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر:١٠) ، كما يقول ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (البقرة : ١٥٥، ١٥٦) .

وقد طلب القرآن الكريم من المسلمين أن يستعينوا بالصبر والصلاة فقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(البقرة:١٥٣) ، ويوجه القرآن الكريم المسلمين إلى أسباب ذلك الابتلاء فيقول: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة:٢١٤) .

ويضرب القرآن الكريم أمثلة للصبر الذي يجلب السعادة والاطمئنان النفسي لصاحبه ، ومن ذلك يوسف عليه السلام الذي حسده أخوته ودبروا له مكيدة وألقوه في الجب ، حيث أخذته قافلة وباعته للعزيز الذي رباه في بيته ، وبعد أن كبر وشب راودته امرأة العزيز عن نفسه فأبى فاتهمته بأنه راودها عن نفسها ، وقالت للعزيز : ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٢٥) .

وكشف الله سبحانه وتعالى عن الحقيقة فطلب العزيز من يوسف ألا يتحدث في هذا الموضوع مرة أخرى ، ثم دبرت امرأة العزيز جلسة للنساء اللاتي لُمْنَهَا وتعجبن من فعلتها ، قـال تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (يوسف:٣١، ٣٢) .

ولكن يوسف عليه السلام رفض ذلك وفضل السجن على الاستجابة لهن ، وكان سعيدا بسجنه الذي أنقذه من النسوة وكيدهن ، قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (يوسف:٣٣) .

وفي سجنه كان داعية إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له وقال لصاحبيه في السجن ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:٣٩، ٤٠) .

ورأى الملك رؤيا لم يستطع أحد أن يفسرها له غير يوسف عليه السلام وهو في السجن ، وطلب الملك أن يخرجوه من السجن وأن يأتوه به ، ولكن يوسف عليه السلام رفض رفضا باتاً اللهم إلا إذا ثبتت براءته من التهمة التي وجهت إليه وقال لرسول الملك : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٥٠) ، واعترفت امرأة العزيز بالحقيقة وأظهرت براءته بقولها : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (يوسف:٥١) .

وولاه الملك الوزارة ، وتولى مسؤولية السنوات العجاف بمقدرة فائقة ثم تعرف على أخوته الذين جاءوا يطلبون المؤونة ودبر خطة تأتي له بشقيقه أولا ثم عرفه أخوته بعد ذلك ، فطلب إليهم أن يأتوه بأبيه وأمه الذين صبروا طوال هذه السنين ، وحين وصل أبواه ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف:١٠٠) ، ثم اتجه إلى ربه سبحانه وتعالى يعدد نعمه عليه ويقول : ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (يوسف:١٠١) .

الحضارة الإسلامية :

الإنسان في الحضارة الإسلامية له هدف وله وظيفة يؤديها ، وهي عمارة الأرض طبقا لمنهج الخالق سبحانه وتعالى ، الذي استخلفه وطلب منه عمارتها ، وجعل الأرض وما فيها مسخر له لتحقيق وظيفته .

والمسلم متصل بخالقه يعبده وحده ولا يشرك به شيئا ، منه يستمد عقيدته وشريعته ، وهو المعمر للكون ، ولكي يتمكن الإنسان من تحقيق وظيفته التي تجلب له سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، فلابد من تحقيق العناصر التالية :

أولا : الإخلاص في القول وفي العمل : والنبي ﷺ يقول : (**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**) "رواه البخاري" .

ثانيا : الاستقامة الكاملة : التي تظهر في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد : (**لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ**) ، كما تظهر في قول الله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ (الأنعام:١٥٣) .

ثالثا : الأخوّة : فكل مسلم يحس بأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وبأن المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، وبأن المسلم لا يظلم المسلم ولا يسلمه، وأن من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، وأنه من نَفّس عن مؤمن كُرْبَة من كُرَب الدنيا نفس الله عنه كُرْبَة من كُرَب يوم القيامة ، وأن على المسلمين أن يعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا ، وبألا يتنازعوا حتى لا يفشلوا وتذهب ريحهم .

وعلى كل مسلم أن يخالط الناس ، وأن يصبر على أذاهم ، وأن يعفو المسلم عمن أســاء اليه ، وبأن يصل من قطعه ، ويعطي من حرمه ، وبأن لا يسخر أحد من أحد ، وأن يجتنب المسلمون الظنون

التي تؤدي إلى التخاصم ، والحسد الذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، إلى جانب السماحة في التعامل مع الناس .

رابعا : **المسؤولية الفردية** : والمسؤولية الفردية تظهر في قول النبي ﷺ : (**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه ...**) "رواه البخاري" ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة:٧، ٨) ، وقوله تعالى ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ (مريم:٩٥) .

خامسا : **القناعة** : والمسلم عليه أن ينظر إلى نعم الله تعالى عليه ، لا إلى ما ينقصه ، ومن بات آمنا في سربه معافا في بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها .

والإنسان بطبيعته يحب المال الكثير ولذلك فإن النبي ﷺ نبه المسلمين إلى خطورة ذلك فقال : (**... فَوَاللَّه مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**) "رواه الترمذي" .

وقد تنبأ النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الطبراني بما سيحدث لفريق من أمته فيقول : (**سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون بالكلام أولئك شرار أمتي**) .

سادسا : **الرضا** : والرضا يجلب السعادة للإنسان مهما كانت الظروف ، فمادام في الإنسان لسان يذكر الله تعالى ، وقلب يشكره ، فإن ذلك يكفيه للإحساس بالسعادة .

القيم الإسلامية :

وهكذا نرى أن القيم الإسلامية هي التي تجعل المجتمع يعيش في أمن وطمأنينة ، ويستخدم ما في الكون من خيرات وثروات ، وما في البشر من

طاقات وعلوم ، حتى يكون للمجتمع الإسلامي دوره الواضح في إقامة الحضارة الإسلامية .

ونفس المسلم الراضية المطمئنة إلى الإيمان الحقيقي لا تستريح إلا في الاكتشافات المستمرة ، والتعرف على أسرار الكون وسننه ، كما تزداد اتصالا بالله سبحانه وتعالى ، ذلك لأن غاية المسلم معرفة الله تعالى ، والتماس العون منه لأداء دوره في الحضارة الإلهية ، التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وتجعلهم يحسون بالسعادة الحقيقية في الدنيا ، وبالسعادة الحقيقية الدائمة في الدار الآخرة .

السعادة في الحضارة الغربية :

الحضارة الغربية ترى أن السعادة تكمن في تملك الأشياء والاستهلاك والمزيد من الاستهلاك، وفي الحرية الكاملة وفي الانطلاق في الشهوات وفي السلطان وما إلى ذلك ، مع أن الإنسان الذي تدفعه شهوة السلطان أو المال لا يشعر بنفسه ككائن بشري له ثروته النفسية ومجاله الذي لا يحد وإنما يمسي ويصبح عبدا خاضعا لميل قوى في نفسه يدفعه إلى السير في هذا الاتجاه أو ذاك .

ولذلك فإننا نلاحظ في المجتمعات الأكثر تقدما سلسلة من حلقات الرشوة والغش والاحتيال ، كما نلاحظ السطو والنهب وإذلال الشعوب الباحثة عن طريقها ، ومن هنا فإننا نلاحظ أن الجاه أو المال أو غير ذلك لا يحقق السعادة الحقيقية التي يشعر بها الإنسان ، ولذلك فإن الحضارة الغربية ما هي إلا حضارة القلق والسأمة والحيرة .

وقد أصبح الناس في الغرب يعبدون العادات والأعراف والتقاليد التي يصنعونها ، وحق عليهم ما جاء في القرآن الكريم ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الصافات: ٩٥، ٩٦) .

والإنسان لا يمكن أن يحقق ذاته إلا إذا بقي متصلا بحقائق الوجود

الأساسية ؛ جمال الحب وجمال التماسك ، وإلا فإنه يحس بمأساة عزلته وجزئية وجوده .

إن الملل الذي ينجم عن الفصل بين المرء وعمله ، بل بينه وبين نفسه ، ما هو إلا عامل من العوامل التي أدت إلى ضيق المرء بنفسه في الحضارة الغربية مما يؤدي به إلى الهروب من المجتمعات بالمخدرات أو من الحياة بالانتحار ، ولذلك فإن نسبة الانتحار في الغرب تتزايد كلما ارتفع الناس في سلم الحضارة بمقياسها المادي .

مظاهر الخلل :

وهناك مظاهر للخلل الاجتماعي في الحضارة الغربية يترتب عليها فقدان السعادة الحقيقية ، ومن هذه المظاهر :

١- **التبرير** : لقد سيطر على إنسان القرن العشرين دافع التبرير بدلا من دافع القيم ، وأصبح كل شيء قابلا للتبرير دون الالتزام بشيء ، لأن الهدف الأعلى أصبح رفع مستوى الدخل ولو عن طريق الانحراف في أي مجال ، ويساعد على ذلك اختفاء العامل الروحي وهو الدافع الأساسي للالتزام بأية قيمة أخلاقية أو موضوعية ، لذلك فقد أصبح سلوك الإنسان نفعيا في علاقاته ، وتحكمت سلطة المادة بدلا من سلطة الضمير ، ولذلك قال بعض المفكرين الغربيين : العَالَم كله خداع في خداع ، وإننا موجودون بلا هدف ، والعالم كله يمضي بغير غاية ، وذلك يدل على الملل والتوتر ، وسرعان ما تمل الحياة ويصيب الإنسان الشقاء بدلا من السعادة .

٢- **إشباع الوهم** : والمجتمعات الغربية غير المتوافقة نفسيا واجتماعيا تحاول أن تشبع الوهم كحب التظاهر ، ومن ذلك الإعلانات المزيفة ، وذلك يبعد الإنسان عن كل علاقة صحيحة بحاجاته الحقيقية .

وقد أصبح الإنسان الغربي يحصل على الأشياء لامتلاكها لا لاستخدامها ، والطريقة الإنسانية أن تكون هناك رابطة بين ما يحتاج

إليه الإنسان وبين ما يحصل عليه ، فهو يشتري الأشياء من المحلات المستوردة المرتفعة الأثمان ، لكي يبدو للناس أنه قادر على ذلك ، فالذي يدفعه إلى هذا السلوك الدعاية والمظهرية لإشباع الوهم ، والوهم لا يشبع أبدا .

وإلى جانب ذلك فإن إنسان الحضارة الغربية يقف من فراغه موقف المستهلك للوقت كالمستهلك للسلع بهدف التظاهر والمباهاة ، وهو ليس حرا في الاستمتاع بوقت فراغه ، لأن اللهو أصبح صناعة كأية صناعة والذي يتحكم في ذلك أساليب ليس فيها معان إنسانية ولا أخلاق قيّمة .

والمجتمع الغربي لا يحس بالتوافق مع نفسه ولا مع المجتمعات الأخرى ، إلا إذا بقى متصلا بحقائق وجوده الأساسية فيحس بجمال الحب وجمال التماسك وعندئذ لا يحس بمأساة العزلة وجزئية وجوده .

٣- **الكسب المادي** : لقد أصبح الهدف في الحضارة الغربية الكسب المادي بلا حدود ، سواء أكان ذلك بطريقة مشروعة أم بطرق غير مشروعة ، وإذا عم البلاء هان .

ونلاحظ في المجتمعات الغربية الأكثر تقدما من الناحية المادية والغريقة في التعاظم سلسلة من حلقات الفضائح والرشوة والغش والاحتيال ، كما نلاحظ السطو والنهب وإذلال الشعوب الباحثة عن طريقها .

إن الأخلاق أصبحت أمرا اجتماعيا تهتم بمعالجة الأمور المتصلة بالعدالة الاجتماعية العامة ، وكان من نتائج ذلك :

- زيادة التسامح في نوعية السلوك الفردي الذي لا يرتبط بالقضايا الاجتماعية العامة .
- القواعد الأخلاقية فيه أصبحت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمذاهب الفلسفية والسياسية .

ومن العوامل الثقافية التي تسبب عدم التوافق الاجتماعي ؛ عدم المساواة في جميع الميادين واضطراب العلاقات الإنسانية الذي يولد الانعزال

الوجداني والنقص العاطفي والشعور بفراغ الحياة ، وبذلك يفقد الإنسان توافقه النفسي فيشعر بأنه عاجز مهدد ويفقد السعادة .

ظاهرة الانفصال :

الإنسان كائن اجتماعي في حاجة قصوى إلى المشاركة والمعاونة التي لا تستند إلى محض المنفعة ، كما أنه في حاجة إلى الإحساس بأنه فرد في جماعة متماسكة متشابكة ، أساسها الحب الخالص والتعاطف والمودة ، وإلا كانت **ظاهرة الانفصال** وهي علة العلل عند إنسان القرن العشرين .

يقول "اريك فروم" الفيلسوف المعروف : " إن المجتمع الحديث يتكون من أفراد كل منهم غريب عن الآخر ، تربطهم مصالح ذاتية وضرورة نفعية لا أكثر " .

نعم إن الحضارة الغربية هي حضارة مادية لا روح فيها ، ولذلك فإنها أصبحت حضارة القلق والسآمة ، وقد وصلت إلى ذلك لأنها أهملت عالم القلب والنفس ، كما أهملت معرفة الهدف الصالح للحياة والجانب الخلقي في الحياة الإنسانية .

ومن مظاهر ذلك الصداقة التي تحولت عند إنسان الحضارة الغربية إلى سلع تجارية ، وأصبح الإنسان لا يقدر في مجتمعه بالصفات الإنسانية بل بما يملك من مال ، ولذلك فإن الإنسان فقد الإحساس بالكرامة لأنه فقد الإحساس بذاته وبوظيفته في الحياة .

يقول "هنريك ايس" : الفيلسوف النرويجي (عام ١٩٠٦م) : " إننا لا نعرف سبيلا للسعادة يؤدي إلى السعادة ، بل إن السبل كلها تبعدنا عنها "، "وتولستوي" الفيلسوف الروسي (عام ١٩١٠م) يرى : " أن السبب في إخفاق الإنسان في نيل السعادة أنه يسعى إلى نيل السعادة الشخصية فقط ، والوصول إلى السعادة الفردية ، ولا يمكن الحصول عليها ، لأن ذلك يستدعي إيقاع الضرر بالآخرين ولن يسكتوا ، والسعادة الحقيقية هي سعادة الجماعة عن طريق المحبة والتعاون والتضحية في سبيل إسعاد الآخرين ، على أن يكون للمجتمع هدف سَامٍ يسعى إلى تحقيقه .

ظاهرة البغاء الوحشي :

لأن هدف الإنسان الغربي أصبح كسب المال للاستهلاك والمزيد من الاستهلاك ، فقد ظهر في المجتمعات الغربية ظاهرة البغاء الوحشي ، وقد انعقد المؤتمر الأول للجريمة في مقر هيئة الأمم المتحدة بجنيف عام ١٩٧٥م وأثير في هذا المؤتمر ظاهرة بدأت تتفشى في المجتمعات الغربية وهي ظاهرة البغاء الوحشي التي انتشرت انتشارا وبائيا في المدن الكبرى بالمجتمعات الغربية ، وبدأت تتسلل إلى المدن الكبرى في المجتمعات الأخرى ، وهي ظاهرة في عصر المجتمعات الاستهلاكية ، فقد تحكم عامل الرفاهية بإشباع الغرائز والرخاء على العوامل الأخلاقية ، وأصبح الباحث عن الترف يحب ما عداه من إشباع البطن وما حولها على حساب إنقاذ الضمير .

والبغاء الوحشي يقصد به البغاء غير المنظم ، والذي يأتي في فترات الحاجة إلى المال وبخاصة في أواخر كل شهر ، ويتم لقاء علاقة جنسية معينة في مقابل يعطى أو يطلب ، وطلب البغاء الوحشي التقنع والظرفية ، وقد وصف بالتوحش لأنه يأتي بلا مقدمات ولا عنوان ولا احتراف ، وهو مرتبط بتطلعات الرفاهية في المجتمعات الاستهلاكية ، ولا تزاوله فئات محددة وإنما يرتبط بموجة التحلل الجنسي ، وضعف مشاعر التسامي ، والرغبة في التغيير والتبديل ، بعد أن عم التغيير كل شيء بالمجتمعات الصناعية .

وتطَوَّر البغاء الوحشي ، وبدأ يفتح الطريق أمام أنواع أخرى ، مثل البغاء الخَدَني الجماعي بين صغار المراهقين ، ونزول سن المزاولة الجنسية حسب التحقيقات الأخيرة من ١٨ عاما عند الفتيات إلى ١٤ عاما ، ومن ١٩ عاما عند الفتيان إلى ١٦ عاما ، وبخاصة في تجمعات المجتمعات الضيقة والرحلات الجماعية للصغار ، كما جاء في صحيفة الموند الباريسية عدد أول أغسطس ١٩٧٨م .

السعادة المفقودة :

لقد أهملت الحضارة الغربية الجانب الروحي واهتمت بالجانب المادي وحده ، مع أن الإنسان كائن اجتماعي في حاجة إلى الجانب المادي والجانب المعنوي معا ، وفي حاجة إلى الإحساس بأنه فرد في جماعة متماسكة على أساس الحب والتعاطف والمودة .

ومن هنا فقد ظهر عدم قدرة الإنسان على تحقيق السلام الداخلي مع النفس وفشل في إسعادها على الرغم من المكاسب المادية الكبيرة التي حصل عليها والتقدم العلمي والتقني الذي أحرزه .

وقد أصبح القلق ظاهرة مرَضيّة تشير إلى أخطار تهدد الحضارة ، وأصبح العصر يسمى عصر القلق والتوتر الفردي والجماعي ، كما أصبحت العلاقات الإنسانية على مختلف مستوياتها مهددة بالاضطراب والخوف .

ومن مؤشرات ذلك الخطر ؛ إدمان المخدرات ليسكن بها ما ينتابه من إحساس بالضياع والغربة ، ثم يتحول سلوكه إلى التخريب ، يقول "رجاء جارودي" في كتابه (وعود الإسلام) : " إن مأساة الغرب تكمن في اعتماده على النمو المتواصل بدون هدف إنساني أو أخلاقي ، وتؤكد الدراسات العلمية في العالم الغربي على ارتفاع معدلات المصابين بالأمراض النفسية نتيجة الإغراق في أوضاع مادية تفرض إيقاعا سريعا للحياة وتحكم على النجاح والفشل بمعايير مادية ، معايير أساسها القوة والمال في حياة فقدت الجانب الروحي من كيانها ، ففقدت الجانب المعنوي وهو أهم الجوانب ".

وقد صرح "كنيدي" عام ١٩٦٢م بأن مستقبل أمريكا في خطر لأن شبابها مائع منحل غارق في الشهوات ، وإن من بين كل سبعة شبان يتقدمون للجندية يوجد ستة غير صالحين لأن الشهوات التي غرقوا فيها أفسدت لياقتهم الجسمية والنفسية .

والإنسان له قدرة معينة على استيعاب المثيرات التي يطلق عليها (العتبة النفسية) ، فإن زادت عن حدها وعجزت ميكانزمات الجسم عن التكيف معها أدى ذلك إلى الاختلال في السلوك ، ويستجيب لذلك بالسلوك العدواني على

كل من حوله وقد يكون على النفس بالانتحار ، وقد لاحظ كل ذلك "ديل كارنيجي" فألف كتابه (دع القلق وابدأ الحياة) ، ورسم الأساليب التي تجعل الإنسان يتوافق مع نفسه ومع مجتمعه فيحس بالسعادة ، ولكنه أهمل الجانب الروحي والصلة بالله تعالى .

ولذلك فإن كان العلاج ناقصا ، قد ينفع في جانب ويفشل في جوانب ، وقد ينجح في حالة ويفشل في حالات ، وقد قال في علاجه الذي ذكره في كتابه : " علينا أن نملأ قلوبنا بأفكار السلام والشجاعة والصحة والآمال ، وألا نحاول أن نثأر من أعدائنا ، وأن نتوقع الجحود وعدم الشكر ، وأن نتجنب تقليد الآخرين ، وإذا منحنا القدر ليمونة فعلينا أن نصنع منها شرابا لذيذا ، وعلينا أن ننسى تعاستنا من خلال محاولة إيجاد السعادة في نفوس غيرنا ، ففي ذلك إحسان إلى النفس ، وعلينا أن نتجنب التوتر والقلق ".

ومن هنا فإن المسلم في الحضارة الإسلامية يحس بأنه ليس وحده في الحياة ، فإن من حوله وفي كل اتجاه وحيثما امتد به البصر وطاف به الخيال إخوان له من خلق الله ، إنهم مختلفون في الصور والأشكال ، ولكنهم يبتهلون إلى الله تعالى ويسبحون بحمده ، وإن كان الإنسان لا يفهم تسبيحهم ، كما يحس بأن الكون صديق له ومعين له على أداء وظيفته ، وهو لذلك يعيش آمنا مطمئنا ، إنه في الأرض ، ولكن قلبه في السماء .

بينما الإنسان في الحضارة الغربية يعيش في قلق دائم وكآبة مستمرة ، كما أنه يحس بالغربة عن الكون ، وعن الناس ، وأحيانا بالغربة عن نفسه ، كما أنه يحس بأنه يعيش بغير هدف وبغير غاية .

والإسلام جاء ليربط القلوب بالخالق سبحانه وتعالى ، وليقيم ميزان القيم الأخلاقية بميزان الإسلام ، وليربي المسلمين على الكتاب والسنة ، وبذلك وصلت سعادة الأفراد والجماعات إلى درجة تهفو إليها النفوس في جميع العصور وفي جميع الأماكن .

إنها السعادة الحقيقية لا السعادة الزائفة ، السعادة التي تجعل المسلم هادئ النفس مطمئن القلب ، راض عن نفسه وعن مجتمعه ، يؤدي وظيفته في

الدنيا ، ويعيش السعادة في الدنيا وفي الأخرة .

وهذا ما تتمناه كل نفس سوية قادرة على السير في طريق الله تعالى ، الطريق الذي يحقق ما يتمناه الإنسان الواعي الفاهم لنفسه ولوظيفته ، وكل ما تصبو إليه النفوس الواعية السليمة .

مفهوم الحرّية

إذا أرادت أمة من الأمم أن تتحرر من قيود مستعمريها الذين عاثوا في بلادها فسادا ، فإنها تأخذ طريق التربية الصحيحة منطلقا أوليا نحو التحرير .

والتربية بمعناها الشامل طريق نحو تحرير الذات وتحرير المجتمع ، ولقد انقرضت كثير من الدول لأنها لم تستطع أن تأخذ بقدر من الثقافة فلا هي وضعت لنفسها شخصية وإطارا ومحتوى ، ولا هي استطاعت أن تتخلص من جلاديها ، لأنها ثبتت دون خط العلم والمعرفة وتحت المستوى الحضاري اللازم للنهضة .

والمسلم مطالب بالعلم في كل وقت ، ومطالب باستخدامه وفق منهج الإسلام ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها .

فالحرية تعني التحرر من القيود والأغلال والضغوط ، وهي لازمة لحياة جميع الأحياء ، ومن هنا فقد وجدنا بعض الحيوانات لا تلد إذا ما كانت حبيسة ، والنبات الذي لا تجد جذوره حرية الحركة في التربة لا يلبث أن يموت ، فمن الطبيعي أن يكون ذا العقل والسياسة حرا من الأغلال والقيود والضغوط ، ولذلك فلابد وأن يكون الإنسان حرا في اختيار عقيدته وفي نشاطه وفي إرادته .

والمسلم عليه أن يؤمن بأن الحرية الحقيقية لا يمنحها إلا الإسلام ، وقد قالها عمر بن الخطاب واضحة صريحة : " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ ".

والإسلام جاء ليحرر الناس ويحرر عقولهم فلا يسجدون لصنم ، ويحرر قلوبهم فلا يخافون من أي شيء ، وكيف يخافون والله تعالى أكبر من كل كبير وأقوى من كل قوي ؟ ، ولو اجتمع الناس على أن ينفعوا إنسانا بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له ، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه .

ومن هنا كان من حق أي إنسان مسلم في الرعية أن يخاطب أمير

المؤمنين بقوة الحق ، وهل يوجد في صفحات التاريخ كمن قال لعمر بن الخطاب في المسجد : " والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا هذه " ؟ وهل يوجد في صفحات التاريخ أيضا من قال مثل عمر بن الخطاب : " الحمد لله الذي أَوْجَد في أمة محمد من يُقَوِّم عمر بسيفه " ؟.

والحرية تتبعها المسؤولية ، والمسلم الحر هو الذي لا يجد قيودا سواء أكانت هذه القيود من داخل النفس أم من خارجها ، فالإنسان الذي تتحكم فيه غرائزه لا يكون حرا ، بل إن انطلاقه ما هو إلا ارتداد إلى الحيوانية ، وقبولـــه لذلك هو رق داخلي وإن كان لا يدري ذلك ، وقد يكون هذا الرق أخطر من الرق الخارجي أو القيود الخارجية ، لأن الإنسان إذا ما كان ضعيفا أمام غرائزه فإنه يكون غير متماسك ، وسيسترسل في توجيه غرائزه دون توجه إلى الخير ، فتأتي الخطورة من داخل النفس .

وإذا ما اتجهنا إلى المسلم فإننا نجده يمارس حريته في كل ما يقول وفي كل ما يفعل ما دام ملتزما بمنهج الله تعالى ، ذلك لأن صلته بالله تحرره وجدانيا فيستطيع أن يقول لنفسه لا أو نعم فيما تلح عليه غرائزه كما يستطيع أن يقول لغيره لا أو نعم وهذه هي الحرية التي تنبع من الإيمان الحقيقي تنبع من داخل النفس فهي تهدف إلى غرض أسمى للقيم الإنسانية .

والقرآن الكريم يوضح ذلك في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (الأعلى: ١٤-١٧) ، ومعنى ذلك أن الذي يستطيع أن يزكي نفسه وأن يطهرها هو الذي يرتفع بنفسه عن الضعف البشري فوق شهواته وفوق غرائزه وفوق نزعات الشيطان وبذلك تزكو نفسه ويستطيع أن يمارس الحرية ، أما الذي لا يستطيع ذلك فهو في اتجاهه المادي يسير ، ومن هنا فإنه يكون تابعا ذليلا لنفسه ولغرائزه وللشيطان الرجيم ، والإنسان لا يصح أن يكون كذلك لأنه خليفة الله في الأرض وهذه الخلافة تعطيه القوة ليرتفع بنفسه ارتفاعا واضحا حتى يستطيع أداء رسالته في هذه الحياة الدنيا وهي

عمارة الأرض طبقا لمنهج الله تعالى .

التوازن :

فالإسلام لذلك يعمل على إيجاد التوازن في نفس الفرد ، ثم إيجاد التوازن في المجتمع كله فيحقق المسلم رغبات جسده ورغبات عقله ورغبات روحه في الحدود التي رسمها الإسلام ، ويهدف بذلك إلى إيجاد التوازن في نفوس الجميع .

والعقيدة الإسلامية هي مطلق وحدانية الله سبحانه وتعالى وهي التي توجد التوازن الكامل في النفس البشرية ، فالله تعالى هو خالق الكون وهو مالك الكون وهو المحيي وهو المميت وهو الذي سيبعث الناس وسيحاسبهم على ما قدمت أيديهم من خير ومن شر ، وبذلك ترتاح نفس المؤمن ويرتاح قلبه إلى هذه العبودية ، وبذلك يتوفر له الاستقرار والراحة والسعادة .

وعبودية الإنسان على هذا النحو هي قمة تحرر الإنسان في هذه الحياة فلن يكون عبدا إلا لله ، وهذه العبودية هي التي تعطيه القوة الكاملة التي يستطيع أن يؤدي بها رسالته في هذه الحياة .

الحرية في الإسلام :

والحرية في الإسلام تجعل الإنسان ينطلق للعمل البناء في مجتمع متحضر ، فهي عملية أخذ وعطاء ، ومن هنا فإن المسلم يعيش في مجتمع يحقق له مكاسب لا تحصى من حيث إشباع حاجاته الروحية والعقلية والاجتماعية والنفسية ، وكأن إشباع الإنسان لشهواته وأهوائه غير مقبول .

بل إن القرآن الكريم يحذر من ذلك فيقول : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ (الكهف:٢٨) ، فالحرية لذلك تشمل الناس جميعا ، والإسلام خير ضابط للحرية وخير ضامن لها أيضا لأنها تنبعث من ايمان المسلمين ، فالله سبحانه وتعالى خلقهم أحرارا وجعلهم يمارسون أول حرية لهم وهي حرية التفكير وحرية الاعتقاد .

والحرية لها أنواع وتبدأ من حرية الاعتقاد .

– **حرية الاعتقاد** : وهي تأتي عن طريق الاختيار العقلي والترجيح والموازنة في الحكم على الأشياء ، فيختار الإنسان ما يراه جديرا بالاختيار ، والإنسان وحده هو صاحب الحرية الكاملة بين الكائنات جميعا ، فالإنسان حر في تفكيره ، وهو حر في عقيدته ، وهو حر في كل ما يريد أن يقوم به من عمل .

ولكن القاعدة الشرعية تقول " لا ضرر ولا ضرار " لتضمن الحدود التي تسير عليها الحرية ، ولقد أراد بعض الصحابة الذين دخلوا الإسلام ولم يدخل أبناؤهم الإسلام أن يجبروهم على ذلك ، فشكا هؤلاء الأبناء إلى رسول الله ﷺ ، فمنعهم من ذلك ، فقالوا : " يا رسول الله ، أيدخل بعضنا النار "يعني أبناؤهم" ونحن ننظر إليهم ولا نفعل شيئا ولا نجبرهم ؟ " فنزلت الآية ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ... ﴾ (البقرة:٢٥٦) .

وهذا تجديد لإطار الإيمان الحقيقي ، فالإنسان يعتقد ما يريد فإذا آمن ضمن نفسه وضمن غيره بهذه الحرية ، من هنا كانت هداية الرسل التي تعني هداية الناس إلى الطريق الصحيح ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، والآية الكريمة الآتية توضح ذلك توضيحا رائعا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ (الأحزاب:٤٥-٤٧) ، وتطلب آية أخرى من الرسول ﷺ ألا يهلك نفسه حزنا على من لم يؤمن : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾(الكهف:٦)، فليس هذا من رسالتك إن أنت إلا نذير وما على الرسول إلا البلاغ .

– **حرية التعبير** : وهناك حرية التعبير ، والحرية الإنسانية في التعبير لها توجيه ، فالإسلام ينظر إلى الطبيعة البشرية ككل وكوحدة تشترك فيها عدة ميول وغرائز ، لأن الإسلام لا ينظر إلى ناحية واحدة ولذلك فقد

عمل على ضمان كل شيء في الإنسان ، ولابد وأن يضمن الإنسان حريته وأن يكون ذلك منبعثا من ذاته ولن يكون ذلك إلا إذا كان مؤمنا بالله تعالى وإلا إذا كانت صلته بالله قوية ، وهنا يستطيع أن يعبر إذا أراد على ألا يؤذي غيره أي نوع من أنواع الإيذاء وهذا ما توضحه الآية الكريمة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (الأحزاب:٧٠، ٧١) .

وحتى في مناقشة غير المسلمين لابد وأن يراعي المسلم آداب المناقشة ، ويوضح ذلك قول الله تعالى : ﴿ ۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت:٤٦) .

وفي آية أخرى يبين القرآن الكريم الأسلوب الذي ينبغي أن يكون مع كل مسلم في تعامله مع الناس : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت:٣٤، ٣٥) .

وحرية التعبير هي عماد الشخصية الإنسانية ومع ذلك فهي في عالمنا المعاصر معرضة لأخطار الكبت والمصادرة والاضطهاد التي تقوم بها الشرطة ، وفي المجتمعات الديمقراطية تقوم على استغلال الإنسان عن طريق الإيحاء والتلقي وذلك بتوجيه الجماهير عن طريق أجهزة الإعلام لرأي معين لأنه يخدم مجموعة معينة أو مصالح معينة .

وقد أوجد العلم – للأسف – وسائل رهيبة في يد الإنسان بحيث يمكن بواسطتها إحداث ما يشاع من انطباعات في عقول الناس ، فطبقوا **سيكولوجية الأعماق** التي بدأ استخدامها في الدعاية للسلع ثم في ترويج الحروب وتوجيه عقول الناس بما يسمونه "غسيل المخ" .

ومن هنا فقد أمكن السيطرة على الجماهير عن طريق التوجيه الجماعي،

فهذه الجماهير تكون مسلوبة الإرادة في المجتمعات الغربية المعاصرة بكل أنواعها ، ذلك لأن الغرب يؤمن بتربية المواطن الصالح الذي يعمل لمصلحة وطنه الضيق ولو كان ذلك على حساب الناس جميعا ، بل ولو كان في ذلك هلاك الناس جميعا .

دور الإسلام في التربية :

التربية في الإسلام بدأت ببناء النفس من الداخل ، لأنه أساس العمل الناجح الذي ينبع عن النفس البشرية ، فلما أتمت ذلك البناء ؛ بدأت في تغيير المجتمع الذي تعيش فيه على أسس الأخلاق الإسلامية ، وبذلك كفلت التربية لكل فرد حاجته وسعادته ، كما كفلت للمجتمع كله ترابطه وطمأنينته .

فالتربية الإسلامية تتقصى أبعد الجوانب في قلب المؤمن وتنظم انفعالاته وتجعله يسير في الطريق الذي رسمه الله تعالى له ، وفي الوقت نفسه تعلمه واجبات الحياة وعناصر النجاح فيها ، وتبين له كيف هلكت الأمم التي تجبرت ورفضت أن تؤمن بالله وتعمر الأرض بالأسلوب الذي ينتج للإنسان الانسجام الكامل مع الكون ما فيه ومن فيه ، كما يتجه به نحو مستقبل الإنسانية ليبعد به عن نواحي القصور ، وتعمل على تحويله إلى مجتمع متكامل تتحقق فيه معاني الإنسانية ، فالأخلاق الإنسانية – الفردية والجماعية – هي التي تجعل المسلم يحس بكيانه ويؤدي وظيفته باعتباره خليفة لله في الأرض ، وهو متلائم مع نفسه ومع مجتمعه ، شاعر بالرضا والطمأنينة ، وتجعل المسلم يسير في طريق البناء الحضاري وفقا للأسس الإسلامية ووفقا للثقافة الإسلامية التي تطبع الحياة في المجتمع الإسلامي بسلوك معين ، وفي الوقت نفسه تطبع سلوك الفرد بطابع لا يختلف مع أسلوب هذا المجتمع ، وهذا الأسلوب المتكامل في سلوك الفرد والمجتمع يختلف عن أسلوب المجتمعات الأخرى .

والمسلم بذلك يرى نفسه مدفوعا إلى السير في الطريق الذي رسمه الإسلام له والقائم على أساس الإيمان بالله وتحقيق المبادئ الإسلامية ، وقد

وضح القرآن الكريم ذلك في قوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ (الأنبياء:٩٠) .

والإسلام يهدف إلى تربية الإنسان الصالح ، والإنسان الصالح هو الذي ينظر إلى الناس جميعا على أنهم أخوته ومتساوون معه في الحقوق والواجبات ، ثم إن العدالة تأخذ مجراها بين الناس جميعا ، والحياة في الأرض قوامها المحبة والمودة والأخوة ، وذلك كله يهدف إلى عمارة الأرض وإعطاء كل ذي حق حقه ، فإذا ما تمت التربية على هذا الأساس ، وكان السلوك مطابقا لهذه التربية فإن المسلم يكون قد نجح وفاز برضوان الله تعالى في الدنيا والآخرة ، وإلا فقد خسر الدنيا والآخرة وخسر نفسه أيضا ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾ (العصر:١-٣) .

ولعل هذا يبين لنا أثر التربية الإسلامية التي تأتي من داخل النفس ، فتجعل المسلم يتعامل مع الناس على أساس الإحسان في العمل ، فهو يعبد الله تعالى كأنه يراه ، ومن هنا فهو لا يحتاج إلى رقيب خارجي لأن الرقيب موجود في داخل الإنسان ، فالمسلم لذلك يراقب الله تعالى في السر كما يراقبه في العلن ويعمل على إرضائه ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وإذا كان المسلم في المجتمع الإسلامي المعاصر ليس على هذا المستوى ولا قريبا منه ، فإن السبب يكمن في انتفاء بناء النفس من الداخل على أسس الإسلام فهو إما أن يكون قد ربى على الأخلاق غير الإسلامية أو أنه لم يأخذ من الأخلاق الإسلامية إلا اسمها ، ففقد بذلك الأساس الأول للبناء السليم لها فأصابه التفكك والتمزق ، وأهدر بذلك إمكاناته بطعن حضارته من أساسها وحدثت لذلك فجوة بين مُثل المسلم وواقعه بين ماضيه وحاضره ، وعليه أن يتنبه إلى ذلك ، وأن يبدأ في الطريق السليم ببناء النفس من الداخل على الأسس الإسلامية ، حتى يستطيع أن يؤدي رسالته في هذه الحياة .

الحرية في المفهوم الغربي :

الحضارات الحديثة تأخذ الحرية بمعنى الانطلاق ، الانطلاق بلا قيود ، والإنسان حر في أن يفعل ما يشاء ما دام لا يخالف القانون ولا يؤذي غيره ، فهو حر في أن يتصرف في نفسه كما يشاء ، لكن الإسلام لا يرى إلا الحرية المنضبطة ، بمعنى أنه يسلك السلوك الذي لا يضره هو ولا يضر المجتمع الذي يعيش فيه ، ولا يخالف منهج الله تعالى الذي جاء به رسوله ﷺ .

ويأتي سؤال : كيف يكون ذلك ؟

والجواب : أن المسلم ليس من حقه أن يقتل نفسه مثلا لأن قتل النفس أشدد حرمة من قتل الغير ، ثم إن المسلم ليس من حقه أن يشرب الخمر ولا المخدرات ولا أي شيء يغيب العقل لأن العقل نعمة من الله تعالى وهذه الأشياء تعود عليه بالضر وبالتالي تعود على المجتمع بالضرر ، ذلك لأن المسلم له رسالة في هذه الحياة فعقله يؤدي رسالة وروحه تؤدي رسالة وجسمه يؤدي رسالة وهكذا ، ولذلك كان المسلم مطالبا بأن يحافظ على ذلك كله .

ثم إن المسلم ليس حرا في أن يعتدي على غيره لا بالزنا ولا بالرشوة ولا بغير ذلك ، حتى ولو كان ذلك برضا الطرف الآخر لأن الله تعالى حرم ذلك كله ، والمسلم ليس حرا في أن يتجسس على غيره ولا في أن يغتاب غيره ، لأن الله تعالى حرم ذلك كله : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ ﴾(الحجرات:١٢)، والمطلوب أن يحب المسلم أخاه وأن يحسن الظن به وأن يكون هو ومن معه في المجتمع يدا واحدة على كل شيء ، وأن يعمل في إطار هذه الرسالة بكل ما يستطيع ليحققها .

نعم إن المسلم حر في أن يفكر في الأسلوب الذي يعمر به الأرض ، فيكون عالما باحثا مخططا منظما عاملا لتحقيق الوظيفة ، ومن الحرية أن يكون منضبطا ، وأن يكون مؤديا لحق غيره كاملا ولو كان عدوا له ، والله

تعالى يقول : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٨) ، فحتى لو كان هناك بغض وكراهية بين المسلم ومن يؤدي إليه حقه فهذا البغض لا يمنعه من أداء حقه إليه ، بينما الحضارات الحديثة لا تعترف بهذا وتعطي للإنسان الغربي حرية الانطلاق والظلم ، فكانت النتيجة السير إلى الهاوية .

ومن هنا نرى أن الحرية في الإسلام ما هي إلا إشعاع داخلي يملأ جنبات النفس المسلمة بارتباطها بالله تعالى فيرفعها هذا الارتباط إلى درجة من السمو تكون بها أقدر على أن تفعل الخير وتقيم العدل وتحق الحق .

ولذلك لم يكن غريبا أن نرى الحرية في اللغة العربية وهي لغة القرآن الكريم مشتقة من المعاناة ، فهي مشتقة من الحرارة بمعنى السخونة والشدة أي بمعنى المعاناة ، فالحرية أن يختار الإنسان فيحسن الاختيار ، فقد يختار المسلم فعل الشيء وقد يختار الكف عنه .

فالحرية في الفكر الإسلامي رهن بإرادة الله تعالى وقد جعل عليه رقيبا داخليا هو الضمير المرتبط بالخالق ، فإن فشل هذا الرقيب فهناك الرقيب الخارجي الذي يطبق الحدود والعقوبات اللازمة ، فإن استطاع الإنسان أن يفلت من الرقيب الخارجي فإن هناك يوم الحساب الذي لا إفلات منه على الإطلاق .

وهكذا تكون الحرية في الإسلام حرية مسئولة أعلن عنها عمر بن الخطاب ﷺ في صرخته الداوية : " **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا** " ؟ .

مفهوم التنوير

التنوير في اللغة العربية :

جاء في المعجم الوسيط أن نور معناها أضاء ، ونور الصبح أسفر وظهر نوره ، ونوّر على فلان أرشده وبين له أمره ، ونوّر الله قلبه تعداه إلى الحق والخير ، والتنوير وقت إسفار الصبح يقال صلى فلان الصبح في التنوير وهكذا ، وهذا عكس الظلام ، فالظلام معناه ذهاب النور ، ومعنى أظلم الليل اسودّ .

والتنوير في الاصطلاح : تعبير يقصد به خرق الإنسان من تصوره العقلي الذي يبقى رازحا فيه بسبب خطيئته ؛ كما يقول الفيلسوف الألماني "كانت" : " إن على الإنسان أن يكون ذا شجاعة وجرأة على استخدام العقل ، ولذلك فإن التنوير في الحضارة الغربية يرتبط أساسا بمدى الشجاعة على استخدام العقل بشكل مستقل ، والحصول على الشهادات الجامعية يظل دائما تام الانفصال عن العقل ذاته وعن الوعي وعن السلوك وعن منهج التفكير ".

والشرط الأساسي في التنوير كما يرى الغرب يكمن في الشجاعة والجرأة على استخدام المعلومات والمعارف العلمية ومدى التأثر بها وتطبيقها عمليا في دنيا الواقع من قبل الشخص الذي يطمح في بدء طريق التنوير اللاعقلي .

ويأتي سؤال : وما المانع من استخدام العقل ؟

ويجيب "كانت" على هذا السؤال بقوله : " ليس هناك إلا طريق واحد لنشر التنوير هو الطريق إلى اللبرالية ومواجهة الاستبداد الديني والسياسي ، والمطلوب القدرة القادرة والفائقة على استخدام العقل ".

لقد كان الغرب في ظلام دامس في كل نواحي الحياة العامة والخاصة ، ولذلك فإن الإنسان هناك استشعر حاجته الماسة والملحة للخروج من مأزق الظلام الحضاري الدامس الذي استمر عشرة قرون .

ترى ما سبب هذا الظلام الدامس ؟

سؤال يجيب عليه الكاتب الإسلامي الكبير الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) فيقول : " جاء عيسى عليه السلام برسالة ربه ليهدي الناس إلى الطريق القويم وحدث ما حدث له من أتباعه ومن أعدائه على السواء ، واختلفوا في رسالته كما اختلفوا في طبيعته ".

وقد عقدت عدة مجامع أولها مجمع نيقية عام ٣٢٥م الذي قالوا فيه إن المسيح إله فقط ، وآخرها مجمع رومة الذي عقد في عام ١٨٦٩م لعقد تحالف بين الطوائف المختلفة بهدف مواجهة المسلمين بكلمة واحدة في الاجتماعات وفي المحافل الدولية ، وفي فترة من الفترات عاش القسس والرهبان عيشة بعيدة عن كل القيم المسيحية ، وأعطوا أنفسهم كافة الحقوق التي استخدموها لقمع من يخالفهم ، يقول الراهب "جيرم" : " إن عيش القسس ونعيمهم كان يزري بترف الأغنياء والأمراء ، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطا عظيما واستحوذ عليهم الجشع وحب المال ، حتى إنهم كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع بالمزاد العلني ، وكانوا يؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران ، ويمنحون شهادات التجارة وإجازات حل المحرمات والمحظورات ، وكانوا يرتشون ويبذرون المال تبذيرا واضحا ، حتى لقد اضطر البابا "ابوستى اثلامن" إلى أن يرهن تاج البابوية ، وانتصر البابوات على الأباطرة بصورة مزعجة ".

ثم دسوا في كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ونظريات عصرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية وجعلوها من أسس الدين ، وكان ذلك سببا في الخلافات العميقة بين الدين وبين العقل والعلم ، فالدين قد أصبح مختلطا بعلم البشر الذي فيه الحق والباطل ، ورجال الدين قدسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس وذكره بعض شُرَّاح الإنجيل من معلومات جغرافية أو تاريخية أو طبيعية .

وهنا حدثت الهوة الواسعة بين رجال الدين ورجال العلم ، وبدأ اضطهاد الكنيسة للعلماء ، كما أنها أوجدت محاكم التفتيش لتحاكم الملحدين والزنادقة - في رأيها - وبلغ عدد الذين حوكموا ثلاثمائة ألف ، أحرق منهم ٣٢ ألفا

وهم أحياء ، ومنهم العالم الطبيعي المعروف "برنو" ، وكذلك العالم المعروف "جاليليو" الذي قال بكروية الأرض .

هنا قاد العلماء الجدد المجددون الثورة ، وعادوا الدين المسيحي ورجاله، وقرر الثائرون أن العلم والدين لا يجتمعان ، وأن العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان ، وأن العلم والعقل لا ينفصلان ، ومن هنا انقلب الحال تماما ، فإذا ذكر رجال الدين ذكرت الدماء الذكية التي أريقت في سبيل العلم .

ولذلك فقد اتجه الغرب كله إلى المادية بكل معانيها ، وجعلوا استخدام العقل هو الأساس في كل حياتهم ، وتركوا الدين بكل أخلاقه وروحانياته ، كما تركوا رجال الدين وعدوهم سبب التخلف في انتشار العلم والمدنية وعدوا هذا العصر عصر التنوير الذي ينهي جاهلية رجال الدين وظلام تفكيرهم ، وبذلك أصبحت الحضارة الغربية نسخة من الحضارة اليونانية القديمة ، وأصبح الإنسان الغربي مادي الحياة ، قوي النفس ، شديد المعاملة ، حريصا على الأشياء وعلى الانتقام في الوقت نفسه .

كتب التنوير في الغرب :

وبدأ العلماء في الغرب يؤلفون كتبا تنور العقول ، وتبعدهم عن رجال الدين وأفكارهم ، ومهدت هذه الكتب للثورة الفرنسية ، فـ"جان جاك روسو" ألّف كتابه (العقد الاجتماعي) الذي يعد إنجيل الثورة، و"مونتسكيو" ألّف كتاب (روح القوانين)، و"فولتير" ألّف كتاب (القانون الطبعي)، و"كانت" ألّف كتاب (الدين وحدود العقل)، و"وليم جود" ألّف كتاب (العدالة السياسية)، و"دارون" ألّف كتاب (أصل الأنواع) .

وظهرت فلسفات التنوير أيضا ، وكان هدفها إبعاد الناس عن الدين ورجاله ، ومن هؤلاء "نيتشة" الذي تزعم فلسفة أن الإله قد مات وأن الإنسان الأعلى (السوبرمان) ينبغي أن يحل محله ، و"كارل ماركس" اليهودي هو صاحب التفسير المادي للتاريخ ، والذي يؤمن بالتطور والحتمية ، وهو داعية الشيوعية وقديسها الأول ، والذي اعتبر الدين أفيون الشعوب ، و"دور كايم"

اليهودي الذي جمع بين حيوانية الإنسان وماديته بنظرية (العقل الجمعي) ، و"فرويد" اليهودي الذي اعتبر الدافع الجنسي دافعا لكل الظواهر الإنسانية في نظرة حيوان جنسي، و"جان بول سارتر" صاحب فلسفة الوجودية والإلحاد.

وهكذا نرى أن الفلسفات الغربية ما هي إلا رد فعل لموقف الكنيسة من العلم ورجاله ، وفرق كبير بين الدين ورجاله ، ولكن المسيحيين لا يفرقون بين الدين وبين رجاله ، ومن هنا قامت حركات التنوير التي تهدف إلى إبعاد العلم عن الدين ورجاله ، لأن الدين ورجاله يمثلون الظلم والظلمات .

يحدث هذا في الغرب ولا يصح بأية صورة من الصور أن يطبق على الإسلام ، ذلك لأن الإسلام لا يوجد به رجال دين ولكن يوجد به علماء دين ، وفرق كبير بين رجال الدين بالمفهوم الغربي وبين علماء الدين بالمفهوم الإسلامي ، فالعلماء ليس لهم رأي مقدس ، وكل إنسان من حقه أن يناقشهم ، ثم إن المحور الأساسي للعلم في الإسلام هو كتاب الله تعالى الذي تكفل بحفظه وسنة نبيه ﷺ .

التنوير من منظور إسلامي :

لقد جاء الإسلام والعالم كله يعيش في ظلام دامس، يقول "هـ.ج.ويلز" : " لقد أطبق على أوربا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر ، وقد كانت همجية ذلك العهد أشد وأفظع من همجية العهد القديم ، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها الحضارة وبلغت أوجها في الماضي كإيطاليا وفرنسا فريسة الدمار والفوضى والخراب ".

وإيران انتشرت فيها الحركات الهدامة المتناقضة ، إلى جانب تقديس الأكاسرة الذين يدّعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي .

والفرس كانوا يرون أنهم فوق القانون وفوق الانتقاد وفوق البشر ، وليس للناس قبَلَهُم إلا السمع والتنفيذ ، إلى جانب التفاوت في الطبقات ، هذا التفاوت الكبير الذي يوضح امتهان الإنسانية ، والمبالغة في تمجيد القومية التاريخية وعبادة النار .

وفي الهند اندمجت البوذية في البرهمية وذابت فيها وأسهمت الهند في التدهور الخلقي والاجتماعي الذي شمل الكرة الأرضية في القرن السادس الميلادي وذلك يتمثل في : " كثرة الآلهة ، والشهوة الجنسية الحاكمة ، والتفاوت الطبقي المجحف ، والامتياز الاجتماعي الجائر ".

والعرب في الجاهلية كانوا يعبدون الأصنام ويشربون الخمر ويئدون البنات ، وكانت العصبية الجاهلية جامحة ، ولذلك فإن القتال كان مستمرا بين القبائل ، وكان هذا سمة من سماتهم .

هنا أرسل الله سبحانه وتعالى محمدا ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

يقول الشيخ "أبو الحسن الندوي" في كتابه الرائع (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) : " أتى النبي ﷺ بيت الدعوة والإصلاح من بابه ، ووضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه ذلك القفل المعقد الذي أعيا فتحه جميع المصلحين في هذه الفترة ، ودعا الناس إلى الإيمان بالله وحده وقام في القوم ينادي : « **أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا** » ودعاهم إلى الإيمان برسالته والإيمان باليوم الآخر ".

وكان التنوير عاما وشاملا لكل مجالات الحياة ، وأثر الإيمان الصحيح في الأخلاق والميول والسلوك ، وأصبح المسلم متصلا بالله تعالى يراقبه في كل أقواله وأفعاله ، وكان من نتائج ذلك الثبات أمام المطامع الدنيوية والشهوات وحساسية الضمير عند الخطأ ، إلى جانب كبر النفس والاستهانة بالزخارف والمظاهر الجوفاء والشجاعة النادرة والاستهانة بالحياة إرضاء لله تعالى ، وتحول الناس من الأنانية إلى عبودية الله وحده ، ومن العصبية الجاهلية إلى الأخوة الإنسانية ، وأصبح كل فرد في المجتمع الإسلامي يحس بأنه راع ومسؤول عن رعيته ، ولا يطيع مخلوقا في معصية الخالق بل إن الجميع ينقادون لطاعة الله سبحانه وتعالى انقياد الحب والطاعة الكاملة .

وبذلك نما العالم كله نموا جديدا ، وبدأ عهد جديد عهد النور المستيقن

من كتاب الله تعالى ، ولذلك قاد المسلمون العالم قيادة متزنة سليمة ، وأثرت الحضارة الإسلامية في الاتجاهات البشرية كلها على امتداد الزمان والمكان.

وفي ذلك يقول الكاتب العصري "مهنا MEHAT" في كتابه (الحضارة القادمة حضارة الإسلام): " إن الإسلام حمل إلى الهند مشعلا من نور انجلت به الظلمات التي كانت تغشى الحياة الإنسانية في عصر مالت فيه الديانات القديمة إلى الانحطاط والتدني وأصبحت الغابات الفاصلة معتقدات فكرية ".

ويقول "روبرت بيفولت" في كتابه (صناعة الإنسانية) : " ما من ناحية من نواحي تقدم أوربا إلا وللحضارة الإسلامية ومنهجها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير ، وإن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوربا تأثيرات كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوربا ، وهكذا يكون التنوير في الحضارة الإسلامية ".

وبذلك يظهر الفرق الكبير بين التنوير في الحضارة الإسلامية الذي يتمسك بالإسلام مفاهيمه وتشريعاته وأفكاره وأخلاقه ، وبين التنوير في الحضارة الغربية الذي يعني مخاصمة الدين والتمسك بالعلمانية .

لقد ألّف "نيتشة" كتاب (فلسفة التنوير) الذي يقول فيه : " إن فلسفة التنوير تفتح العقل وأصبح شاملا لكل نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والقانونية " ، ذلك لأن الكنيسة الأرثوذكسية كانت تعطي الأولوية للنقل مع ما فيه من حشو بشري ، ولذلك كان هناك تعارض بين الدين وبين العقل ، وبدأ الاتجاه إلى أن العقل أعلى من الوحي ومن كل شيء .

ثم خطا التنوير خطوة أخرى تقول : " إن العقل هو مقياس الوحي حتى ولو أدى ذلك إلى هدم أكبر عمود في البناء " ، ولذلك وجد من يهاجم عقيدة البعث والمعجزات النبوية ، ومن يستبعد الشعائر الدينية ، ومن لا يؤمن بالعقائد الأخرى ، بل إن "هافال" (١٨٥١/١٩٣٠م) ممثل البروتستانتية الحرة أقام المسيحية على أساس خلقي محض .

احتفالات برجال التنوير :

وفي بعض البلاد العربية بدأت احتفالات بقادة التنوير في العصر الحديث ، وذكر المحتفلون بأن قادة التنوير أربعة : طه حسين ، وعباس العقاد ، وإبراهيم المازني ، ومصطفى الرافعي ، وذلك بمناسبة مرور مائة عام على ميلادهم ، وقالوا : " إنهم قادوا رحلة التنوير " ، ولكن الملاحظة أن هؤلاء الأربعة الذين قالوا عنهم أنهم رواد التنوير تختلف مفاهيمهم كما تختلف اتجاهاتهم وسلوكهم .

فالرافعي يمثل الاتجاه الإسلامي الرفيع والأفكار السليمة ، وقد دافع عنها دفاع المستميت طوال حياته .

والعقاد نشر الكثير من الكتب الإسلامية والأدبية التي تدل على عقل واع متفتح له أهداف واضحة .

والمازني كانت اتجاهاته أدبية متنوعة .

وطه حسين هو الذي نشر الأفكار العلمانية وسار على منهج المستشرقين في التحدث عن الدين الإسلامي وعن القرآن وعن نبي الإسلام وعن مستقبل الثقافة في مصر وما ينبغي أن يكون عليه .

ومعنى هذا الاختلاف في المناهج وفي الاتجاهات حتى أنها لتبدو متناقضة لمن ينظر إليها نظرة ثاقبة ، ترى ماذا يريد المسلمون الذين تثقفوا ثقافة غربية من التحدث عن التنوير ورواده ؟ ، إنه لابد من المتحدث عن التنوير أن يكون عنده الثقافة الإسلامية من مصادرها الأصلية حتى يستطيع أن يحكم الحكم السليم من منظور سليم، فلا يطبق ما يعرفه على مالا يعرفه .

وما ينطبق على رجال الدين المسيحي لا ينطبق على علماء الدين الإسلامي ، فعلماء الدين الإسلامي يختلفون عن أي فرد في المجتمع الإسلامي ، وليس لهم حق القداسة كما هو الحال في رجال الدين المسيحي ، وهم يناقَشُون فيما يقولون والمرجع في ذلك هو كتاب الله تعالى الذي تكفل بحفظه والحديث الشريف الذي درس كل شيء عنه علماء المسلمين ، ثم إن المسلمين جميعا متساوون لا فرق بين عالم دين وغيره ، ولا بين حاكم

ومحكوم ولا بين رجل وامرأة .

والإسلام حث على طلب العلم في كل مجالاته وفي جميع اتجاهاته ، وطلب من المسلمين أن يسيروا في الأرض ليكتشفوا أسرار الكون ويستخرجوا كنوزها ، وعلى الذين يتحدثون عن التنوير أيضا أن لا يكيلوا بمكيال واحد لأنهم تثقفوا ثقافة واحدة ودرسوا منهجا واحدا ، وبذلك لا يظلمون دينهم ولا يظلمون أنفسهم .

وبعد فإن المسلمين في حاجة إلى إعادة صياغة أنفسهم صياغة كاملة قائمة على المنهج الإسلامي ، حتى يستطيعوا أن يعيدوا صياغة أنفسهم في هذا العالم الضائع الذي لا يحس بأن له وظيفة في هذه الحياة ، بذلك ينقذون أنفسهم وينقذون هذا العالم التائه الذي يسير إلى الهاوية .

وبذلك يسيرون على الطريق المستقيم الذي يقول الله تعالى فيه: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام:١٥٣) .

وبذلك يحقق الله تعالى ما وعدهم به في قوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور:٥٥) .

مفهوم الحب

الحب في اللغة معناه الوداد ، والحب عند الفلاسفة معناه الميل إلى الأشخاص أو الأشياء العزيزة أو الجذابة أو النافعة .

ولكن الحب في الحضارة الغربية يكاد يقتصر على الصلة الخاصة بين الرجل والمرأة ، وقد انتشر هذا المفهوم حتى أصبح تجارة قائمة على الإثارة ، ثم انتقل بصورة أو بأخرى إلى المجتمعات الإسلامية ، ولعل هذا المفهوم هو الذي كان سائدا في الجاهلية قبل الإسلام ، يقول الشيخ "أبو الحسن الندوي" في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) : " كانت العاطفة القوية – التي يرجع إليها الفضل في غالب عجائب الإنسانية ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ تلك التي يسميها الناس الحب – تائهة ضائعة ، لم يظهر منذ عدة قرون من يشغلها فضاعت في ألوان الجمال الزاهية والمظاهر الخلابة مما تغنى به الشعراء قديما وحديثا " .

يأخذ الحب مساحة كبيرة في الثقافة الغربية وقد توسعوا فيه توسعا شمل جميع النواحي وساعد على نشر هذه المفاهيم أجهزة الإعلام بكل أنواعها ، حتى تحول الحب إلى تجارة تربح المليارات من الدولارات ، وانتشرت المثيرات الخارجية التي تخصصت في ذلك ، مثل بيوت الأزياء العالمية والمجلات الجنسية والأفلام التي دمرت القيم والحياة ، ووضعت العقبات أمام الشباب في الزواج المبكر ، ووجد الفراغ الفكري والعقلي ، وضعفت الأسرة وزادت مثيرات الجنس والمال الذي يدفع الشباب إلى الهجرة ، وعجزت منتديات الشباب عن أداء دورها .

وقد لاحظ ذلك الطبيب الإنجليزي "ترومان- ل – بيل" مدير مستشفى لندن النفسي فقال : " لعل أغرب تجارة كسب منها التجار آلاف من الملايين تجارة الحب وصناعة السينما ونحوها ، لقد ساعدوا في إفساد عواطف هذا الجيل من الشباب الذي ولد بعد الحرب ، وقالوا له إن الحب جميل وساحر وأصبحت كلمة الحب صورة خيالية لا يستطيع الإنسان أن يصل إليها فيعجز

عن ممارسة الحب العاطفي الذي يختلف عن أفكاره لأن الواقع يصدمها " .

الحب في الثقافة الإسلامية :

القرآن الكريم هو المصدر الأول للتربية في الإسلام وعلى أساسه ربى النبي ﷺ الصحابة الذين قاموا بأكبر تغيير في تاريخ البشرية حتى أخرجوا الناس من الظلمات إلى النور وربوا الناس على الأخلاق الإسلامية وغيروا الاتجاهات والسلوك .

وقد وردت كلمة الحب في القرآن الكريم ثمانية وثمانين مرة ، ولم يرد فيها الحب بالمعنى المعروف حاليا من الصلة الخاصة بين الرجل والمرأة إلا مرة واحدة وذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ (يوسف:٣٠) ، أما ما عدا ذلك فقد ذكر القرآن الكريم الذين يحبهم الله والذين لا يحبهم ، ونحو ذلك من المعاني التي تبني المجتمعات البناء السليم وتحقق وظيفة الإنسان على الأرض ، فالذين يحبهم الله تعالى هم الذين يطيعونه ويسيرون على منهاجه والذين لا يحبهم هم الذين لا يسيرون على طريق الاستقامة فيؤثرون تأثيرا سلبيا في هذه الحياة .

ومن آيات القرآن الكريم في من يحبهم الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة:١٩٥) ، ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٦) ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) ، ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (التوبة : ١٠٨) ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف:٤) .

ومن آيات القرآن الكريم في الذين لا يحبهم الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (النساء:٣٦)، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(المائدة:٦٤) ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (النساء:١٠٧) ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (المائدة:٨٧) ، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف:٣١) .

والذين يتحلون بالصفات التي يحبها الله سبحانه وتعالى ويتخلون عن الصفات التي لا يحبها الله سبحانه وتعالى هم المؤمنون المتقون الذين يستطيعون حمل الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ ويحققون الخلافة في الأرض، ويمثل هؤلاء الصحابة الذين رباهم نبي الإسلام على مبادئ الإسلام التربية الكاملة المتكاملة التي تظهر في وصف الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) فقال : " حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم ، وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم ، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة وفي اليوم رجال الغد ، لا تزعجهم مصيبة ولا تبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ولايطغيهم غنى ولا تلهيهم تجارة ولا تخيفهم قوة ولا يريدون علوا في الأرض ولافسادا وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الأقربين ، وطأ لهم أكناف الأرض وأصبحوا عصمة للبشرية ووقاية للعالم ودعاة إلى دين الله واستخلفهم الرسول ﷺ في عمله ولحق بالرفيق الأعلى قرير العين من أمته ورسالته " .

المؤمن يحب الله :

والحب لله سبحانه وتعالى هو حب الطاعة والانقياد لكل ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية ، والالتزام بمنهج الله تعالى والسير عليه إرضاء الخالق سبحانه وتعالى ، يقول الرسول ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) "الطبراني والبيهقي" ، ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة:١٦٥) ، وقد طلب الله سبحانه وتعالى من نبيه أن يقول للمؤمنين : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران:٣١)، فليس الحب كلمة تقال وإنما هو عاطفة واتجاه وطاعة وسلوك ، كما نبه الله سبحانه وتعالى أبا بكر والمسلمين إلى مثل ذلك بعد براءة عائشة رضي الله عنها من حديث الإفك ، فقد قال أبو بكر ﷺ : " لا أنفق على مسطح شيئا بعد الذي قال في عائشة وأدخل عليها ما أدخل " ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ (النور:٢٢) ، فقال أبو بكر ﷺ : " والله إني لأحب أن يغفر الله لي " ، وأرجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفقها عليه ، وقال : " والله لا أنزعها أبدا " ، وهذه السرعة في الاستجابة تبين مدى حب أبي بكر لخالقه سبحانه وتعالى ولحمايته وغفرانه .

وقد ظن اليهود والنصارى أن الله تعالى يحبهم وأنه سيعاملهم معاملة خاصة ، مع أنهم لا يطيعون أوامره ولا يستجيبون لعمل الخير ، وهذا لون من ألوان الغرور ، وقد رد الله عليهم بقولهم في القرآن الكريم بما يبين لهم أنهم لا يتميزون على غيرهم من مخلوقات الله تعالى وأنه سيحاسبهم على كل أعمالهم فقال : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ (المائدة:١٨) .

وبعض المسلمين يظنون أن مجرد أداء الشعائر بدون الالتزام الكامل بمنهج الخالق سبحانه وتعالى هو مقياس الحب لله تعالى ، وقد تنبهت إلى ذلك رابعة العدوية فقالت :

تعصي الإله وأنت تظهر وده — هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعتــه — إن المحب لمن يحب مطيع

وأعطت مثالا للحب الحقيقي الكامل لله سبحانه وتعالى فقالت مخاطبة ربها : " اللهم إن كنت أحبك طمعا في جنتك فاحرمني منها ، وإن كنت أحبك خوفا من نارك فاحرقني فيها " .

بين الله والناس :

لقد كان الدخول في الإسلام نقطة تحول رائعة في حياة المسلمين ، فلم يعد يهمهم المال ولا الولد ولا القبيلة ، لكن الذي أصبح يهمهم رضا الخالق سبحانه وتعالى ، ولذلك فإنهم كانوا يسألون دائما عن الأشياء التي يحبها الله تعالى حتى يفعلوها ويلتزموا بها حبا له ، كما كانوا يسألون عن الأشياء التي لا يحبها حتى لا يقربونها ، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ : **(قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّه قَالَ الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه)** "رواه الشيخان" .

وقَال أَبو فَسيلَةَ وَاثلَةُ بْنُ الأَسْــقَعِ **(سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه أَمِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ قَالَ لا وَلَكِنْ مِنْ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يَنْصُرَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ)** "رواه أحمد وابن ماجة" .

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْد السَّاعديِّ **(قَالَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ)** "رواه ابن ماجة" .

والناس بصفة عامة يحبون الحياة الدنيا وما فيها من زينة ومال وجاه ونساء ، وقد بين القرآن الكريم ذلك للناس وقال لهم هذه زينة الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ، والذين يطيعون الله ورسوله ويسيرون على منهاجه يعطيهم في الآخرة ما هو أثمن من ذلك كله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة وأثمن من ذلك رضوان من الله يقول الله تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۞﴾ (آل عمران: ١٤، ١٥) .

ويوجه القرآن الكريم أنظار المسلمين إلى أن من أزواجهم وأولادهم أعداء لهم وأن عليهم أن يحذروا ذلك حتى لا يغضب الله عليهم ، وفي الوقت نفسه يمكنهم أن يصفحوا عن أبنائهم وأزواجهم إذا هم حاولوا التأثير عليهم في أي شيء يغضب الله تعالى يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (التغابن:١٤-١٦) .

وقد نعى القرآن الكريم على الذين يجعلون الدنيا أكبر همهم ولا يلتزمون بأي منهج إلهي ، ترى كيف يفعلون يوم القيامة حينما يجدون أنفسهم في جهنم يصلون بنارها ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ (الإنسان:٢٧) .

ولكن الذين يؤمنون بالله سبحانه وتعالى لا يحبون إلا ما يحب الله تعالى ويضحون في سبيل الله بكل شيء ، ومن هؤلاء يوسف عليه السلام الذي خير بين الاستجابة لرغبات امرأة العزيز أو السجن ، فقال في إصرار رائع : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ (يوسف:٣٣) ، وامرأة فرعون التي آمنت بموسى وأصرت على ذلك وعذبها فرعون بكل ما استطاع ولكنها قالت : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى

مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (التحريم:١١) .

والأنصار هاجر إليهم النبي ﷺ والصحابة فارين بدينهم تاركين أموالهم وأولادهم فاستقبلهم الأنصار بالترحاب وآثروهم على أنفسهم ، وقد مدح الله تعالى ذلك وسجله في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر:٩) .

حب للنموذجية :

وحتى في الحب الذي يكون بين الرجل والمرأة فإن حب الله سبحانه وتعالى يتقدم عليه ، فلا يفعل المسلم شيئا يغضب خالقه .

ويحدثنا التاريخ الإسلامي عن عبد الله القس الذي كان يعيش في بغداد أيام الدولة العباسية ، وكان يحب سلامة حبا ملك عليه فؤاده حتى أطلقوا عليها (سلامة القس) لاشتهار هذا الحب في المجتمع ، والتقى مرة بمحبوبته سلامة في خلوة وقد تجملت له ، ولما رأت عدم استعداده للاستجابة لها ، قالت: إني أحبك ، فقال : وأنا والله الذي لا إله إلا هو ، قالت: وأشتهي أن أضع فمي على فمك ، فقال: وأنا والله الذي لا إله إلا هو ، قالت: فما يمنعك فوالله إن المكان لَخَالٍ ، قال: يمنعني قول الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف:٦٧) ، وأخشى أن تتحول مودتي لك إلى عداوة يوم القيامة ، ثم انصرف عنها ولم يرها بعد ذلك أبدا .

وهكذا نرى الحب من المنظور الإسلامي هو حب البناء لا حب الهدم ، الحب الذي يشمل حب الله ورسوله وحب المؤمنين وحب الأعمال الصالحة وحب الكون ما فيه ومن فيه ، وعلى أساس هذا الحب ربى النبي ﷺ أصحابه فأشاعوا الحب بمعناه الإسلامي بين ربوع العالم ونشروا الإسلام وأسعدوا البشرية كلها كما أسعدوا أنفسهم .

نظرية كأس الماء :

وفي الغرب تنتشر الفلسفات البشرية وهي بطبيعتها قاصرة عن فهم الإنسان من جميع نواحيه وعن إدراك حاجاته الكاملة وبالتالي هي قاصرة عن إدراك المجتمعات البشرية كلها ، ولذلك فإن كل الفلسفات البشرية ينكشف ما فيها من قصور عند التطبيق وذلك يكون بعد وقوع الكارثة .

وقد نادى الشيوعيون بمبدأ المساواة في مجال الجنس وأباحوه لتحطيم نظام الزواج باعتباره من إرث البرجوازية وأطلقوا عليه نظرية (كأس الماء) ، وذلك يعني إمكانية ممارسة الجنس كما يتناول الإنسان كأس الماء ، واعتبروا الزواج مغامرة جنسية لا إلزام فيها من حيث نتاجها من أبناء وغير ذلك ، لكن الشيوعيين عانوا من ذلك ما عانوا ، ثم أحسوا بالخطر الذي يهدد كيانهم ويحطم شبابهم ، حتى أن زعيمهم "لينين" وصف تلك النظرية بأنها حطمت الشباب وجعلتهم متهورين مجانين ، وقال بعد ذلك : " إن النظرية ضد المجتمع وإن هذا النظام أنتج أطفالا بلا أسر وعاهرات غير محترفات وأظهر ظاهرة البغاء الوحشي وأوجد متطوعات في زمن الحرب بهدف الإشباع الجنسي للجنود " .

ومما يلاحظ أن فرنسا كرمت النساء اللاتي ولدن أولادا لا يعرفون آباءهم ولقبن بأمهات زمن الحرب .

وفي أمريكا : أصبح الأدب المكشوف فنا يغرق أمريكا وقد بلغ حجم تجارته عشرين مليارا من الصور الإباحية فقط ، ففي كل يوم يوزع أكثر من نصف مليون نشرة تعرض كل الإنتاج الفاحش للبيع في المدن والقرى وترسل بالبريد وثلاثة أرباع هذا الإنتاج القذر يوجه بمهارة إلى أطفال المدارس الذين تبدأ أعمارهم من الحادية عشرة وحتى طلبة المدارس الثانوية، والضحايا موجودون في أكثر البيوت احتراما ، فهي كما يقول الصحفي الأمريكي "هولمان هافي" : " سم قاتل لأنها لفتيات عراة منفردات ومختلطات في صور خليعة ، والنساء في أغلب الحالات من البغايا ، لذلك فإن مكتب التحقيقات الفيدرالي يؤكد أن الشباب في سن الثامنة عشرة يرتكبون أكثر مما

يرتكب أي فريق من الذكور في الأعمار الأخرى " ، وقد اكتشف رجال الشرطة أن تجار الأدب المكشوف يجمعون قوائم بأسماء الأحداث ثم يرسلون إنتاجهم بالبريد ، وطالما شكا الآباء والأمهات من ذلك .

الاغتصاب :

وترتب على ذلك ظهور الاغتصاب بصورة واضحة ، وقد أعد الدكتور أحمد المجذوب الخبير الاقتصادي والاجتماعي بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية بالقاهرة دراسة عن الجرائم في ١٤ دولة أوربية وعدد من دول العالم الثالث بما فيها مصر بالتعاون مع الأمم المتحدة ، وقد نشر ملخصها في مجلة الصباحية السعودية بتاريخ ١٨ مارس ١٩٩٢م وجاء فيها : " إن الأبحاث قد كشفت أن ٢٧ سيدة من كل ٥٠ سيدة يتعرضن للاغتصاب ومنها ثلاث حالات شروع و٢٢ يتعرضن لاغتصابات جسمية و٢ يتعرضن لاعتداءات طفيفة ، ولاحظ الباحث أن عددا كبيرا من السيدات لا يبلغن الشرطة تحسبا للمخاطر المتوقعة " .

ونحن الآن في حاجة إلى أن نعيد صياغة أنفسنا صياغة كاملة طبقا للمنهج الإسلامي فنربي أنفسنا ونربي أبناءنا على الحب الإسلامي فنشعر بالراحة والطمأنينة والسعادة وينتشر ذلك في العالم كله ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام:١٥٣) .

مفهوم الصداقة

جاء في المعجم الوسيط : الصديق هو الصاحب الصادق الود ، وهي علاقة مودة ومحبة بين الأصدقاء ، وفي لسان العرب : الصداقة هي النصيحة والإخاء ، والصديق هو المصادق لذلك .

والصديق : من يعيش معك ويتحد وإياك في الأذواق والذي تسره مسراتك وتحزنه أحزانك وبذلك تقوم الصداقة على المعاشرة والتشابه والمشاركة الوجدانية وهي إحدى الحاجات الضرورية للحياة ، فالصديق هو الملاذ الذي يلجأ إليه الإنسان وقت الضيق والشدة ، والصديق يمد صديقه بالنصيحة التي تحميه من الزلل وتمد الشيخ بالمعونة حيث يتقدم به العمر ويضعف البدن .

والصداقة تظهر في اتخاذ الإنسان إنسانا آخر يتعاون معه على الخير وتبادل المنافع ويكون أساسها الحب والإعجاب والإيمان الصادق يحمل الإنسان على الإخلاص في الصداقة فلا يتخذ لنيل غرض ثم ينقطع أو للكسب من الصديق عند الرخاء وتركه في الشدة .

والسلوك الضروري للصداقة أساسه التقوى القائمة على امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه ويكون بين الأصدقاء الناصح والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ويوضح القرآن الكريم صورة للصديق في يوم القيامة لمن يحقق هذا المفهوم فيقول : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ (الفرقان:٢٧-٢٩) ، والنبي ﷺ يقول : (**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**) "أبو داود والترمذي" .

ومن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله ما يبينه النبي ﷺ في قوله : (**ورَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْه وتفرَّقَا عليْه**) "البخاري".

والصداقة في الرؤية الإسلامية ليس فيها حقد ولا حسد ولا غيره ويظهر فيها الإيثار لا الأثرة ، يقول النبي ﷺ : (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا أَنْتُمْ فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ**) "أبو داود والترمذي" .

أنواع الصداقة :

من أنواع الصداقة صداقة المتعة وهي صداقة عرضية تنقطع بانقطاع الفائدة ، وهناك صداقة اللذة وهي تنعقد بسهولة وتنفك أيضا بسهولة ، وهناك صداقة الفضيلة وهي تقوم على تشابه الفضيلة وهي أكثرها دواما وتكون أكمل عندما تتوافر لها الأسس الثلاثة المتعة واللذة والفضيلة .

وتشابه الصديقين يحفظ الصداقة من الشقاق والخلاف ، وعلاقة الصداقة علاقة تكامل ، وهناك صديق وصديق حميم وصديق مقرب .

والصداقة الحقيقية تخفف من صداقة الإنسان بالقلق والاكتئاب ومشاعر الملل والسأم والتوتر والخجل الشديد والعجز عن التصرف السليم عندما تضطره الظروف إلى التعامل مع الآخرين ، إلى جانب قدرته على مقاومة الأمراض الجسمية ، إلى جانب التفاعل الاجتماعي في أماكن الدراسة والعمل لمن لهم أصدقاء ، وهي أيضا تخفف من مشاعر الوحدة وتسهم في التنشئة الاجتماعية وتجعل الإنسان يفصح عن ذاته بالتعبير والتوضيح وتنمية العلاقات الاجتماعية مع الآخرين .

الصداقة في علم النفس :

يرى علم النفس أن الصداقة علاقة اجتماعية وثيقة ودائمة وتقوم على تماثل الاتجاهات بخاصة وتحمل دلالات بالغة الأهمية تمس توافق الفرد واستقرار الجماعة ، وهناك أصدقاء مقربون وأصدقاء اجتماعيون وأصدقاء مشاركون في النشاط وأصدقاء مشاركون في العلم .

والصداقة تتميز بخاصية الاختيار المتبادل والمستقر عبر الزمن بين

طرفي العلاقة الاجتماعية ، وهناك صلة وثيقة بين التعامل مع الأصدقاء والتوافق النفسي والاجتماعي في كل مراحل الحياة بعامة وفي مرحلتي الطفولة والمراهقة بخاصة .

وتتلخص وظائف الصداقة النفسية في خفض مشاعر الوحدة ودعم المشاعر الإيجابية السارة والإسهام في عمليات التنشئة الاجتماعية ، ويلاحظ أن الإفصاح عن الذات والتدعيم الأخلاقي مؤشران لعمق الصداقة وشرطان لاستمرارها ، ولابد من مكاشفة الصديق صديقه بالأفكار والمشاعر والميول الشخصية وخبرات الماضي ، كما يلاحظ أن الصداقة الحقيقية في طريقها إلى الزوال في عصر يتميز بالماديات والضغوط المختلفة ، فهناك مجتمع يعيش على المناقشة وآخر يتساءل عن الفرق بين الصداقة الحقيقية وصداقة المنفعة .

ويؤكد علماء النفس والاجتماع على أن أبناء المجتمعات المعاصرة أصبحوا في حاجة ماسة إلى وجود صداقة أساسها العاطفة الصادقة والوفاق وتقارب وجهات النظر والاهتمامات وليست المصالح الموجودة من طرف واحد .

وأول أسس الصداقة أن يكون الشخص صادقا مع نفسه ومع الآخرين وقادرا على أن يكون بينهما جوانب شخصية تقوي إيجابياتهما وتخفض سلبياتهما .

والصديق الحقيقي يبقى قريبا من النفس على الرغم من كثرة مشاغل الطرفين ويجده الشخص قريبا منه في أوقات المحن المادية والاجتماعية ، والصديق المخلص يستجيب لمساعدة صديقه مهما كلفه ذلك من جهد ووقت ومال .

قالوا عن الصداقة والأصدقاء :

قال شاعر عن صديقه :

روحه روحي وروحي روحـــه   إن يشأ شئت وإن شئت يشاء

وقال أبو البغال :

فإما أن تكـون أخي بصـدق فأعرف منك غثي من سميني

وإلا فـاطرحنـي واتخـذني عـدوا أتـقيـك وتتـقيـني

فـإني لو تخالفنـي شمالـي خلافك ما وصلت بها يمينـي

إذن لقطعتـها ولقلت بينـي كـذلك أجتوي من يجتويني

وقال شاعر :

صديقك حين تستغني كثير ومالك عند فقرك من صديق

فلا تغضب على أحد إذا ما طوى منك الزيادة عند ضيق

وقال ابن المقفع في كتابه (الأدب الكبير) : " اعلم أن إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا ، هم زينة في الرخاء وعدة في الشدة ومعونة في المعاش والمعاد ، فلا تفرط في اكتسابهم وابتغاء المواصلات والأسباب إليهم " .

وقال الغزالي في كتابه "بداية الهداية" : " من حقوق الصحبة الواجبة مع الأصدقاء الإيثار بالمال والمبادرة بالإغاثة وكتمان السر وستر العيوب وإبلاغه ما يسره وحسن الإصغاء عند الحديث ودعوته بأحب الأسماء إليه والثناء عليه بما يعرف من محاسنه وشكره على صنيعه في وجهه والدفاع عنه في غيبته ونصحه باللطف والعفو عن زلته وإحسان الوفاء مع أهله والتخفيف عنه في المكاره وإظهار السرور لرؤيته والسلام عند لقائه " .

وقد ذكر الغزالي خمسة شروط للصداقة : " العقل وحسن الخلق والصلاح والكرم والصدق والقدرة على فهم الشخص والإفصاح عن الذات ومشاركة الآخرين في نشاطات اجتماعية وإظهار الاهتمام بالآخرين " .

وقال أبو حيان التوحيدي : " الصداقة قد تسمو على القرابة والقريب يجب أن يكون صديقا ، ومن حق الصديق على صديقه القيام بأعبائه في غيابه وحفظه ومعاونته عند حضوره وملاطفته إذا جفا ومكافأته إذا وفق في عمل والحديث الطيب مع الأصدقاء ودفع الظلم عنه والابتهاج لرؤيته والحفاظ على سره وعدم تصديق ما يقال عنه ومعاونته إذا وقع خلاف معه ولا تنقطع الصلة نهائيا " .

وقال أرسطو : " الصديق هو أنت إلا أنه لشخص غيرك " .

وقال ابن عطاء : " الصديق يسكن إليه ويعتمد عليه ويستأنس به ويستشار في الملمات " .

وقال أبو حيان التوحيدي في كتابه (الصديق والصداقة) : " الصداقة عاطفة اصطفائية وفضيلة إنسانية مثالية يصعب تحقيقها في الغالب وهي مرتبطة بصميم الحياة الشعورية يتفرع عنها جملة من الفضائل الخلقية والسلوكية تضمن لها البقاء والنماء كالعشرة والمؤاخاة والألفة وما يلحق بها من الرعاية والوفاء والمساعدة والتضحية والبذل والمساواة والجود والكرم ، ووجود هذه الفضائل يساعد على تكوين الصداقة وتوسعها مدى الحياة " .

ومن طرائف الصداقة ما حكي أن رجلا جاء إلى أبي إسحاق الكسائي ليلا فقال : ما جاء بك ؟ قال : ركبني دين ، قال : كم هو ؟ قال : أربعمائة درهم فأخرج كيسا فأعطاه ، فلما رجع عنه بكى فقال له أهله : ما يبكيك ؟ قال : بكائي أني لم أبحث عن حاله وألجأته إلى الذل .

وقال شاعر في معاملته لصديقه :

ركنت إلى الصديق نبا بأمري ... وأشرفني على حنق وضيق

غفرت ذنوبه وكظمت غيظي ... مخافة أن أعيش بلا صديق

الصداقة في الحضارة الغربية :

الصداقة في الغرب تقاس بالمنفعة العاجلة سواء أكانت هذه المنفعة مادية أو جنسية ، ومن هنا وجدت الصداقة بين الفتى والفتاة التي أباحوها إباحة كاملة دون حاجز أو ضابط ، ولذلك أصبحت العلاقات الجنسية بينهما مفتوحة بلا قواعد ولا حدود ما دام الأمر برضا الطرفين ، ومن هنا فإنها سرعان ما تزول وتنتهي لتبدأ صداقة أخرى سرعان ما تزول وتنتهي أيضا .

وهكذا تجرد الجنس من مفهومه الديني ومن مضمونه الاجتماعي وأصبح غير مرتبط بأية قيمة أخلاقية كالشرف والعرض ولذلك فقد أصبح صورة بيولوجية كالأكل الذي لا يحتاج إلى قوانين ، ولذلك فقد بدأت أمراض

التحلل الأخلاقي الجسمية والعقلية والمعنوية تنتشر بلا حدود ، الأمر الذي جعل الشعوب الغربية تسير إلى الهاوية وهي غير واعية بهذه الخطورة لأنهم مشغولون بأشياء أخرى .

والإسلام يمنع منعا باتا الصداقة بين الفتى والفتاة كما يمنع الاختلاط غير المنضبط بالمفاهيم الإسلامية ، والصلة بين الفتيان والفتيات وبين المؤمنين جميعا هي صلة الأخوة التي يقول الله تعالى فيها : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات:١٠) .

ومن المؤسف أن الاختراق الثقافي وصل إلى بعض أفراد المجتمعات الإسلامية ، وبخاصة بين الذين ربوا تربية غير إسلامية سواء أكانت تربيتهم في الغرب أم في المدارس الأجنبية في بلادهم فأصبحوا لا يرون مانعا من الصداقة بين الفتى والفتاة .

ثم تطورت هذه المرحلة حتى أصبحت الصداقة بمعناها الغربي واضحة عند بعض أفراد المجتمعات الإسلامية ، وهذا من أسبابه الانبهار غير الواعي بالمدنية الغربية التي ليس لها ضوابط ولا قيم .

وعلى المجتمعات الإسلامية أن تعود إلى دينها وإلى قيمها وإلى ربها سواء أكان ذلك في المفاهيم أم في العواطف أم في الأفعال ، وأن يكون قدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ وإلا فإننا سنندم يوم لا ينفع الندم .

مفهوم القوة

يظن كثير من الناس أن القوة تكمن في قوة الجسد وقوة النواحي المادية ويشيع هذا المفهوم في المجتمعات الغربية وفي المجتمعات التي لا تدين بدين الإسلام .

ولكن مفهوم القوة في الإسلام يشمل قوة الجسد وقوة العقل وقوة الروح ، كما يشمل قوة الفرد وقوة الجماعة بحيث يستخدم ذلك كله في السير على الطريق المستقيم الذي جاء به محمد ﷺ .

وقد وضح ذلك الشيخ سيد سابق رحمه الله تعالى فقال في كتابه (عناصر القوة في الإسلام) : " إن عناصر القوة تشمل جوانب الحياة كلها ، فهي تتمثل في الإيمان بالله تعالى إيمانا يحرر الضمير والوجدان ، كما يتمثل في الاستعصام بالحق استعصاما يزهق أمامه الباطل ويندحر ، وفي معرفة الضعف النفسي والتطهر منه حتى تأخذ النفس طريقها إلى العزة والسمو الروحي ، كما تتمثل في العلم المقوم لشخصية الإنسان والكاشف له عن حقائق الوجود المادي وما وراء هذا الوجود من عالم ما وراء الطبيعة ، كما تتمثل في الثروة وتعمير الأرض واستثمار قوى الكون والانتفاع بما وراء الطبيعة وما فيها من بركات الله وخيراته وتوزيعها على أفراد الأسرة الإنسانية بالكفاية والعدل .

كما تتمثل في إقامة المجتمعات على أساس من الحرية المنضبطة والعدالة الكاملة والمساواة الشاملة والتشريع السمح والعمل الجاد والمعاشرة الحسنة والحكم الصالح الذي تكون السيادة الحقيقية فيه للأمة ، كما تتمثل في السلام العام القائم على احترام الإنسان وكفالة حقوقه وفي احترام العهود والحفاظ على المواثيق وفي التضحية النبيلة والاستشهاد في سبيل الحق ومن أجل الحياة الحرة الكريمة ، وسيادة الأمة وقيادتها السليمة منوطة بتوفر هذه القوى مجتمعة .

وباجتماع هذه العناصر وتحققها في المجتمع الإسلامي آل إليها ميراث

الأرض ووضعت في يدها قيادة الأمم ووكل إليها إخراج الناس من عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحده ومن جور الحكام إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة وأصبحت الأمة رفيعة البنيان عظيمة السلطان ثابتة الأركان وتمَّ لها وعد الله الذي لا يتخلف ، يقول الله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (النور:٥٥) .

ومازالت الأمة الإسلامية كذلك حتى غيرت ما بنفسها ، وأخلفت ما عاهدت الله عليه فغير الله تعالى ما بها وطبق عليها سنته في الاجتماع لبشري يقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ (الأنفال:٥٣) .

وكانت العوامل في هذا التغيير تتلخص في : التنازع على الحكم والسلطان ، والتعصب للجنس والنسب والاختلاف في أصول الدين وفي فروعه ، وإرجاف المرجفين ودسائس المستعمرين والابتعاد عن روح الإسلام والتعلق بالشكل دون الجوهر ، وبذلك أصيبت الأمة بضعف في العقيدة وانحطاط في الخلق وتخلف في العلم وفقر في الثروة وتفكك في الروابط وفساد في الحكم وفوضى في كل شأن مما عرضها للغزو الأجنبي والاستعمار الخارجي .

وكانت وطأة الاستعمار شديدة ، فقد شككها في دينها وغير من أخلاقها وشوه حضارتها وأعطى لنفسه القوامة على حكمها وتشريعاتها وعلى علومها وفنونها وعلى ثروتها واقتصادها ، كما تمكن من السيطرة على جيشها وقوتها العسكرية ونجح في تمزيق الكيان الإسلامي إلى طوائف وشيع وأحزاب ، وبذلك استطاع أن يحقق الكثير مما يستهدفه ، إلا أنه عجز عن

القضاء على روح الأمة وإفقادها معنوياتها .

لكن الأمة بدأت تستيقظ من نومها وتسترد وعيها وتتحسس طريقها محاولة انتزاع مكانتها في قوة وعزم ، ولذلك فلابد وأن نبدأ في تغيير جوهري في نفوسنا وفي أخلاقنا بحيث تسير مع المفاهيم الإسلامية ، ولابد وأن يكون التغيير شاملا وعاما وذلك بالنسبة للأفراد والمجتمع ، وأن يقوم ذلك على أساس مدروس وخطة محكمة ، وذلك لكي ننفي أسباب الانحلال والضعف من جهة ، ونأخذ بأسباب القوة والعزة من جهة أخرى .

وأسباب القوة تكمن في الأصول الخالدة والمبادئ الكريمة التي جاء بها الإسلام ، كما تكمن في البعد عن فوضى الأخلاق والتحلل من الآداب والتشكيك في المثل والقيم وفي البعد عن تقليد الشرق والغرب ، واستيراد المبادئ من هنا وهناك ، لأن الإسلام قوة في ذاته ولكن المنتسبين إليه هم الذين تسرب إليهم الضعف في نفوسهم وفي أفكارهم فشوهوا جماله وحجبوا نوره وكانوا حجة لأعدائه ودليلا في يد خصومه وسلاحا يشهرونه في وجوه دعاة الإسلام وبذلك خسروا عزتهم وكرامتهم كما خسر العالم كله هداية الله ورحمته المهداة إلى عباده .

قوة معرفة الله :

من آثار معرفة الله تعالى والإيمان به تحرر النفس من سيطرة غيرها لأن الإيمان يقضي بأن الله تعالى هو الذي يتولى أمور البشر وهو النافع والضار وليس لبشر مهما علا قدره وعظم شأنه أن يسوق إلى الإنسان ما أراد الله منعه أو أن يمنع عنه ما أراد الله أن يعطيه إياه وما البشر إلا خلق مثله ، يقول الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان:٣) .

وإذا تحررت النفس من سيطرة غيرها سارت في طريقها إلى الكمال

دون أن يعوقها عائق أو يبعدها عن غايتها صاد ، إن الذي عوق الإنسانية عن النهوض وحال بينها وبين رقيها هو الخضوع للاستبداد سواء أكان استبداد الحكام والرؤساء أم استبداد رجال الدين ، والإسلام بذلك أطلق حرية الإنسان من سيطرة هؤلاء المستبدين التي لازمت الإنسان قرونا طويلة .

الطمأنينة :

والإسلام يبعث في نفس الإنسان روح الشجاعة والإقدام واحتقار الموت والرغبة في الاستشهاد من أجل الحق ، والطمأنينة أثر من أثار الإيمان أي طمأنينة القلب وسكينة النفس، يقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨) ، ويقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح:٤)، وإذا اطمأن القلب وسكنت النفس شعر الإنسان ببرد الراحة وحلاوة اليقين واحتمل الأهوال بشجاعة وثبت إزاء الخطوب مهما اشتدت ورأى أن يد الله تعالى ممدودة إليه وأنه القادر على فتح الأبواب المغلقة فلا يتسرب إليه الجزع ولا يعرف اليأس إلى نفسه سبيلا .

والإيمان يرفع من قوى الإنسان المعنوية ويربطه بمثل أعلى وهو الله تعالى مصدر الخير والبر والكمال وبهذا يسمو الإنسان عن الماديات ويرتفع عن الشهوات ويستكبر على لذائذ الحياة الدنيا ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (يونس:٩) .

والحياة الدنيا يعجل الله تعالى بها للمؤمنين في الدنيا والآخرة وهي تتمثل في ولاية الله تعالى للمؤمن وهدايته له ونصره على أعدائه وحفظه مما يبيت له كلما عثر أو زلت به قدم فضلا عما يفيضه عليه من متاع مادي يكون

عونا له على قطع مراحل الحياة في يسر ، يقول الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل:٩٧) .

الحق :

يتمثل الحق في العقيدة الصحيحة والعلم النافع والعمل الصالح والخلق الكريم ، ومن ثم فقد أطلق على الإسلام لفظ (الحق) ، يقول الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (الفتح:٢٨) ، والإسلام الحق هو دعوة الأنبياء جميعهم وما دعوة محمد ﷺ إلا إتماما لهذه الدعوة ، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: (**مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ**) "رواه مسلم" .

والمدافعة بين الحق والباطل قديمة منذ عرف في الدنيا حق وباطل ودائما تكون الغلبة في النهاية للحق لأنه الثابت النافع ، كما تكون الهزيمة للباطل لأنه هو الزهوق الضار ، وهذه سنة الله تعالى التي أبان عنها في القرآن الكريم فقال : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء:١٨) .

وحتى تتجلى هذه الحقيقة في الأذهان وتأخذ طريقها إلى الإفهام ضرب الله المثل للحق والباطل بالماء والحديد والزبد والخبث ، فمثل الحق مثل الماء والحديد في بقائهما ونفعهما ، ومثل الباطل مثل الزبد الذي يعلو الماء والخبث الذي يعلو الحديد فإنه لا بقاء لهما ولا منفعة فيهما ، يقول الله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا

يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (الرعد:١٧) .

ومن سنن الله تعالى ألا يقوم الحق وحده وإنما ينهض بالرجال الكبار الذين لهم مزايا وخصائص ومن هذه المزايا الثبات عليه والاعتصام به فما شرفت النفس بمثل معرفتها بالحق واستمساكها به فهو الذي يعلي قدرها ويرفع شأنها وقد أثنى الله تعالى على المستمسكين بالحق الذين يعتصمون بعروته ولا يخالفون عن أمره وأخبر أنه لا يضيع شيئا من أجورهم ، يقول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾(الأعراف:١٧٠)، ومنها أن يكون لهم من الشجاعة ما يحملهم على الجهرية والإعلان عنه دون خوف أو جبن لأنهم منتدبون من قبل الله لإشاعة هذا النور والإذاعة به في العالمين ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٤) ، والجهر بالحق من أعظم الفضائل لأنه لا قيام للباطل إلا في غفلة الحق ، فما دام الدعاة إلى الله يجهرون بالحق ويدعون إليه ويعملون على نشره فسوف يتوارى الباطل وينكمش كما تتوارى الخفافيش في ضوء النهار .

ولا يتصور أن تنهض جماعة أو ترقى أمة إلا إذا وجد فيها الدعاة الذين ينادون بالحق ويصرحون به ، ويوم تفقد الأمة هؤلاء يكون ذلك إيذانا بغروب شمسها وتنكيس أعلامها ، يقول الرسول ﷺ : (**إِذَا رَأَيْتُمْ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ إِنَّكَ أَنْتَ ظَالِمٌ فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ**) "رواه الإمام أحمد" .

ودعاة الحق من واجبهم ألا يخشوا إلا الله تعالى وألا يخافوا أحدا سواه لأن الجهر بالحق لا ينقص رزقا ولا يؤخر أجلا فإن الآجال بيد الله

والأرزاق في قبضته ، يقول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (الأحزاب:٣٩) ، واحتمال تبعات الحق مما يعمق جذوره ويمكن لهم ، وهذه التبعات تقتضي الصبر واحتمال الألم واستعذاب العذاب كما تقتضي التضحية بالنفس والمال والجهد والوقت والعرق والدموع ، وهذه هي صفات رجال الحق وسمات أصحاب الرسالة السامية في كل عصر ومصر وفي كل زمان ومكان .

وهكذا نفهم معنى القوة في الحضارة الإسلامية فليست هي قوة البغي ولا السيطرة ولا القهر ولا التسلط وإنما هي القوة التي تجعل الحق حقا والباطل باطلا ، وبذلك يمكن للمسلمين أن يؤدوا وظيفتهم باعتبارهم خلفاء الله في الأرض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ويكونون خير أمة أخرجت للناس ويكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدا .

وظيفة المسلم :

الإنسان في هذه الأرض مستخلف من قبل الله تعالى في عمارة الأرض على الأساس الذي وضعه الإسلام له مستخدما الأدوات التي منحه الله تعالى إياها . والإنسان إذ يمارس أعمال الخلافة هذه إنما يعبد الله لأنه ينفذ أحكامه في شتى المجالات ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦) ، فالعبادة ما هي إلا طاعة الله التامة ولا تقتصر على الشعائر كالصلاة والزكاة .

وهناك ارتباط وثيق بين وظيفة الإنسان وبين فطرته لأن جانب الروح في فطرته ينشد عبادة الله تعالى وينهض إلى القيام بكل ما يستلزمه ذلك .

وجانب المادة يجعله يقبل على التعمير لإشباع مطالب جسمه . وإلى جانب ذلك فإن الذاتية المستقلة للإنسان تعكس المزيد من الإبداع حسب ميول الأفراد ومواهبهم وتعكس التنوع في الأنشطة ويعكس الجانب الاجتماعي في فطرة الإنسان تضافر الجهود النابعة من منطلق الفطرة لعمارة الأرض .

والحضارة الغربية تعني بالجانب المادي في التنمية وقد قطعت أشواطا بعيدة في هذا الميدان ، ولكنها لم تسعد بالتقدم المادي لأن الإنسان ليس جسما فقط وإنما هو جسم وعقل وروح ، ولابد من تنمية كل هذه الجوانب حتى يستطيع أن يؤدي وظيفته ، ولذلك فإن الحضارة الإسلامية تقوم في التنمية على العقيدة الإسلامية التي تتمثل في قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:١١٠) .

فالأمة الإسلامية مخرجة إخراجا وفق نموذج معين يحفظ نظاما معينا قائما على الشريعة المستمدة من القرآن والسنة والتي تهدف إلى تحقيق التماسك الاجتماعي ، وإقرار الأمن والنظام ، والقيام بصور الأنشطة

المختلفة وذلك يحقق العدل والإنصاف ، ويجعل المجتمع يقوم بدوره في دعوة المجتمعات كلها إلى الله تعالى على بصيرة وعمارة الأرض عمارة كاملة ، ويحقق للإنسان قول الله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص:٧٧) .

ويقوم منهج التربية في الإسلام على تحقيق شريعة الله تعالى في كل شؤون الحياة وعلى تحقيق الإيمان بالله تعالى في كل أفراد المجتمع .

والإنسان وسيلة التنمية وغايتها ، وهناك عوامل داخلية في ذات الفرد تؤثر في التنمية وتتمثل في مجموعة القيم التي يحملها والتصورات الاعتقادية التي يؤمن بها .

وهناك عوامل خارجية تتمثل في العوامل الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي تحيط به في لحظة زمنية معينة .

جوانب التنمية :

وتهدف التنمية في الإسلام إلى إعداد الإنسان الصالح من جميع جوانبه ، وأول هذه الجوانب العقل ، وذلك بتنمية القدرات العقلية والوصول بها إلى درجة النضج ، ثم المثل الأعلى ، ثم الخبرات الدينية والاجتماعية والكونية ، ثم المزاوجة بينها طبقا لقواعد معينة لتوحيد الإرادة العازمة فينتج العمل الصالح .

والقدرات العقلية كامنة يستطيع الإنسان من خلالها التعرف على البيئة القائمة من حوله بمكوناتها وأحداثها ، ثم توظيفها في الوقت المناسب طبقا للمواقف التي يمر بها خلال حياته والقدرات العقلية تحتاج إلى التنمية وإلى التغيير على حسب استعمالها ورعايتها والمحافظة عليها وتختلف درجات نموها ونشاطها وصحتها ومرضها حسب العوامل الآتية :

١- نوع التربية التي يتلقاها الإنسان .

٢- وعي القائمين على تربية هذه القدرات وخبراتهم .
٣- الوسائل التي تستعمل لتنميتها .
٤- البيئة الاجتماعية والثقافية التي تعمل ممن خلالها .
وقد وردت الإشارة إلى التفكير في تسعة عشرة موضعا من القرآن الكريم .

والمتعلم في حاجة إلى التدريب على التفكير الشامل بدلا من التفكير الجزئي وإلى التدريب على التفكير التجديدي بدلا من التفكير التقليدي ، حتى لا تتعطل القوى العقلية اكتفاء بالمألوف وقديما قالوا كما يروي القرآن الكريم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف:٢٣) .

كما أن الإنسان في حاجة إلى التدريب على التفكير العملي بدلا من الظن والهوى ، وقد أشار القرآن الكريم إلى من يتبعون الظن فقال : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ (النجم:٢٨) .

والإنسان في حاجة أيضا إلى تدريب المتعلم على التفكير الجماعي بدلا من التفكير الفردي ، وبذلك تكون الرعاية متبادلة ، وهي لازمة للمجتمع الذي يسعى للتنمية وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ (الأنفال:٢٥) .

ويتجسد التفكير الجماعي في مبدأ الشورى كركاب السفينة الذين يكونون جميعا مسئولين عن سلامتها ، فإما أن ينجوا جميعا وإما أن يغرقوا جميعا .
وأنواع التفكير هي : التفكير المنطقي أو التحليلي ، والتفكير التجريبي ، والتفكير الأخلاقي ، والتفكير الجمالي ، وإتقان منهج التفكير وأشكاله والتدريب على مهاراته ونمو القدرات العقلية أساس في الفهم والسلوك .

الجانب الروحي :

والجانب الروحي يعني أن الإنسان متحرر من كل عبودية موجودة في

النظام البشري ، لأن المجتمع الإسلامي تتوحد فيه الألوهية والإيمان بالله تعالى خالق البشر وخالق الكون ومن هذه الحرية تنطلق الإصلاحات كلها لأن مردها إلى الله تعالى ، وهدفها ابتغاء رضوان الله تعالى .

وقد جعل الإسلام النية أساسا لتقدير كل عمل يقول النبي ﷺ : (**إنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**) "رواه البخاري" .

ومن هنا فإن المسلم يسعى لتوثيق الصلة بالله تعالى فيتحرر وجدانه من عبادة غير الله ، ومن الخوف من أحد سواه لأن الله تعالى هو صاحب السلطان المطلق في الكون ، يقول الله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (فاطر:٢) ويقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة:١٨٦) .

بل إن عباد الله الذين أسرفوا على أنفسهم إذا تابوا فإن الله سيغفر لهم كل ذنوبهم ، يقول الله تعالى : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الزمر:٥٣) .

وقد تنبهت إلى ذلك الدكتورة لورا فاجليري فقالت في كتابها (تفسير الإسلام) : " في الإسلام تحررت الروح من التعصب ، وتحررت إرادة الإنسان من الروابط التي طالما ربطتها بالآخرين ، وسقطت عروش القسس وحراس العقيدة الزائفين وسماسرة الخلاص ، وكل هؤلاء كانوا يزعمون أنهم وسطاء بين الله وبين الإنسان ، وأن لهم بذلك السلطة على الآخرين " .

وقيم المال قيم جاهلية وهي لا تحقق لأصحابها في الإسلام ميزة إلا إذا صاحبها إيمان واستقامة : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ (**الحجرات:١٣**) .

وبناء على هذا المبدأ الرباني يسعى المسلم لتوثيق صلته بالله تعالى وبالمجتمع الذي يعيش فيه وبنفسه لتكون حياته الباطنية حياة إشراق وراحة

لا حياة قلق باسم الترقي والتقدم .

والحب يكون بين الله وبين عباده الذين يتبعون رسوله ويعملون بأوامره: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (آل عمران:٣١) ، وأولياء الله هم في حماية الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

الجسم السليم :

والعناية بالجسم عنصر أساسي في التنمية الإسلامية بحيث يكون الفرد سليما من الأمراض الجسمية بكل صورها ، وذلك يستلزم أن يأخذ الجسم الطعام المستوفى لعناصر الغذاء اللازمة للجسم وهي مواد البناء ومواد الطاقة والمواد الواقية من الأمراض ، وبذلك تكون مناعة الجسم إلى جانب النظافة الشخصية التي نظمها الإسلام في الوضوء وفي الاغتسال إلى جانب البعد عن الأغذية المضرة والاعتدال في الطعام والشراب وما إلى ذلك .

وسائل التنمية :

وللتنمية وسائل أهمها :

العلم : والعلم من المنظور الإسلامي يشمل كل أنواع العلوم لأن ذلك يمكنه من أداء وظيفته على الأرض وقد تكررت كلمة العلم في القرآن الكريم ٨٨ مرة ، والدراسة الإحصائية للقرآن الكريم توضح أن معظم ما ذكر عن العلم جاء في سياق الكلام عن الكون وموارده ومعنى ذلك أن يعمل الإنسان بفكره وعمله في تلك المجالات ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر:٢٧، ٢٨)، وقد أوجب الإسلام على المسلمين التعلم والتعليم وكرّم العلم

والمشتغلين به .

والعمل الصالح : والعمل الصالح هو الترجمة العملية والتطبيق الأكمل للعلاقات التي حددتها الشريعة الإسلامية بين الإنسان والخالق والكون والحياة وبين الدنيا والآخرة .

والعمل يشمل العمل الثقافي والعمل السياسي والزراعي والصناعي والتجاري والفكري والاقتصادي والاجتماعي والعسكري والأخلاقي .

وقد وردت كلمة العمل في القرآن الكريم في ٣٥٩ موضعا وفي جميع المواضع يلحق العمل بإحدى صفتين إما صفة الصلاح وإما صفة السوء .

ومن أهم منافع العمل الصالح الذي يتلازم مع العلم : الأمن ، والتمكين في الأرض ، ووفرة الخبرات ، والحياة الطيبة ، والدرجات العالية ، والجزاء الحسن ، والتمتع بنعم الله تعالى ، والصحة النفسية والجسدية ، والاطمئنان الاجتماعي ثم دخول الجنة ، قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل:٩٧) .

أما عمل السوء فيجلب المعيشة الضنك وتمزيق المجتمع وسقوط المنزلة والانهيار الاقتصادي والدمار الاجتماعي والاضطراب النفسي والفكري وغير ذلك .. يقول الله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الجاثية : ٢١) .

ويلاحظ أن التربية الغربية الحديثة قضت على الجانب الإنساني والأخلاقي في شخصية الفرد المعاصر ،وربت الفرد المنتج المستهلك .

وقد تراكمت المعارف المتنوعة وتطبيقاتها التقنية واستعمالاتها الاجتماعية دون قيم أخلاقية ، وقد أدى ذلك إلى انهيار المجتمعات كما أدى إلى ظهور طبقتين من الناس : طبقة أقلية تمتلك ثمار هذه المعارف

وتطبيقاتها التقنية ، وطبقة أكثرية تنتج هذه الأشياء وتنال أقل من أثمان المواد التي جري التشجيع على استهلاكها .

وبذلك تدنى مستوى المثل الأعلى إلى المستوى الجسدي أما القيم والأخلاق فلا وجود لها .

وقد تأثرت التربية في الدول الإسلامية بالتربية الغربية فأدى ذلك إلى :

- حصر مفهوم العمل الصالح في القدرات والمهارات المادية .
- اضطراب مفهوم المثل الأعلى .

وإذا انحسرت القيم فإن التربية تكون قد خرجت عن مسارها السليم ، وذلك يؤدي إلى هبوط الإنسان .

والإنسان عنده ميل فطري إلى أن يضحي بنفسه وماله في سبيل المثل الأعلى .

والإسلام يضيف الطاقات الروحية والخلقية والجسمية للإنسان ، وبذلك تتكامل القوى كلها في التنمية ، قال تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ (القصص : ٢٦) .

كما أبرز الإسلام تكوين القيم وترسيخها لديه حتى يكون الإنسان المسلم،

ومنها التعليم والتعلم لتنمية القدرات العقلية التي خلقت فيه قال تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (العلق:١، ٢) .

ومعنى ذلك أنه يجب أن يصاغ التعليم في مستوى تكوين الإنسان فيكون فيه الخلق والقيم الصالحة ويتمها فيه ، ويكون عنده المقدرة الفكرية التي يتعرف بها على مختلف ظواهر الكون ومظاهره ، والتنمية ما هي إلا جهد واع رشيد وقدرات مالية ومتابعة وترشيد .

والشقاء في قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ (طه:١١٧) ، ينصرف في الجهد البشري إلى عملية الإنتاج والعمل الصالح يظهر في ضوابط الحلال والحرام،

وضابط تنوع الاستثمارات وضابط ترتيب الاستثمارات وضابط توظيف العلم مع العمل والمال .

وقد أبرز الإسلام العائد واضحا من التنمية في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (التوبة: ١١١).

وإذا كان هدف العمل الصالح في الغرب زيادة الإنتاج وزيادة الاستهلاك، فإن هدف العمل الصالح في الإسلام يظهر في قدرة المجتمع على تحقيق وظيفته في الدعوة إلى الله على بصيرة ، وفي عمارة الأرض يقول الله تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٧).

إن القرآن الكريم يرسم للمسلم دوره في الحياة ومسؤوليته تجاهها ، ويأمره بأن ينهض بكل ما يحقق التنمية الشاملة الكاملة ويجعل من ذلك كله فريضة تحقق له السعادة في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة .

ولكن العالم الإسلامي انبهر بالتقدم التقني في الغرب وسار على منهاجه، ولذلك فإنه أصبح يقع في دائرة الدول المتخلفة ، مع أنه يملك كل وسائل التنمية .

ومصادر التخلف تظهر في :

- رداءة استخدام أدوات وأساليب معينة مما يدل على فساد الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية لهذا المجتمع .
- استخدام الموارد الطبيعية استخداما غير سليم .
- عدم الانتفاع بالبشر الانتفاع الذي يحقق التنمية والتقدم .

وأصبح من عوامل التخلف :

- عدم الالتزام بمفهوم الأمة الواحدة والدار الواحدة مع أن القرآن الكريم يقول : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال:٤٦) .
- عدم وعي حكام المسلمين بمسؤولياتهم الكاملة ، مع أن كل مسلم راع ومسئول عن رعيته .
- التدخل الخارجي في جميع المجالات .

وبعد فإن العقيدة الإسلامية جزء أساسي من ذاتنا ، وعنصر الإيمان أصل في الذات الإسلامية ، التوجه الإيماني الملتحم بالعمل والحركة يؤدي إلى النصر .

ومن طبيعة العالم الإسلامي المودة والمحبة والتسامح والعدالة والأخوة والتقدم في ظل القيم الإسلامية وهي عناصر يملكها المجتمع الإسلامي ، ولكنه لا يلتفت إليها ولا يعمل على نشرها ولا على تطبيقها .

وهذا دور كل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي ، وهو يحقق معنى الآية الكريمة : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: ٥٥) .

نعم إن المجتمع الإسلامي يبني لأهداف يحققها كل فرد في حياته ، كما يبني لما بعد الحياة بل إن بناءه للحياة هو بناءه لما بعد الحياة أيضا ما دام المسلم يريد بعمله هذا وجه الله تعالى ، وهذا ما جعل بعض الكتاب الغربيين يقول : (لقد حول النبي محمد جماعة المؤمنين إلى مجتمع متحد يؤمن بالله وتحميه أعلى القيم الأخلاقية ونحن نلاحظ أن العالم الذي نعيش فيه يشيع في نفوس أفراده القلق والحيرة ، فهو يفتقد السعادة لأنه يفتقد الأمن الداخلي

والأمن الخارجي وهو في حاجة إلى نهج جديد يحقق له ما يفتقده ويجعله يحس بالاطمئنان) .

وهذا مجال الإسلام وهذه رسالة المؤمنين على امتداد الزمان والمكان ، وقد جاء الوقت الذي أحسسنا فيه بحاجة العالم الإسلامي والعالم غير الإسلامي إلى الإسلام ، فعلينا أن نبدأ صفحة جديدة في صياغة أنفسنا صياغة إسلامية كاملة فنؤدي وظيفتنا ونفوز برضوان الله تعالى ، وهذه أمنية كل مسلم ، ولابد وأن يكون الهدف والأسلوب والاتجاه كل ذلك مستمدا من القرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين اللذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا .

مفهوم التراث

التراث :

لفظ يطلق على ما يرثه المجتمع عن الآباء والأجداد من عقيدة وثقافة وقيم وآداب وفنون وصناعات – وذلك يشمل القرآن والسنة بالنسبة للتراث الإسلامي – وهو إطار يحكم الحياة ويدعمها بتطور في داخله فإذا انفصلت خارجه فإن ذلك يعني وقوع انحراف لا بد من تقويمه.

وقد حذر القرآن الكريم من محاولة الانقياد لليهود وقال لليهود : ﴿ ... أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة:٨٥) .

ولكن مفهوم التراث عند الغرب يختلف عن المفهوم الإسلامي لأن الروح العلمانية المهيمنة على الفكر الغربي الحديث جعل الغربيين لا يميزون بين الدين – و عندهم فيه الكثير من التحريف – والبشرية وبين بقية الإرث الحضاري ، بل هو يتعامل مع التراث سواء ما كان مصدره الإنسان المخلوق وما كان مصدره الإله الخالق ، ومن ذلك الآداب المنبثقة عن الأدب الإغريقي حيث ظهرت الكلاسيكية والرومانتيكية والجمالية التي أعلنت عدم الالتزام بقيم المجتمع الخلقية والدينية حتى قال أوسكار وايلد : (ليس ثمة كتاب يمكن أن يوصف باللاأخلاقي إذ ليس ثمة كتب حسنة التأليف وأخرى سيئة) .

وفي القرن العشرين سيطرت العبثية وفقد اليقين الديني وقد عبرت مسرحيات اللامعقول لكامي عن خيبة الأمل وضياع اليقين .

وقد صدر إلينا الغرب كلمة التراث بمفهومها الغربي وهو يهدف بذلك إلى أن يصبح الإسلام تراثا أشبه بتراث الغرب ونسي الغربيون الفرق بين التراث في المفهوم الغربي وبين التراث في المفهوم الإسلامي ، لأن التراث

في الغرب عبارة عن مجموعة من الكتابات التي كتبها بشر فيمكن أن يؤخذ منه ما يفيد ويترك منه ما يضر ، بينما التراث في الإسلام يشمل ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية وما كتبه الفقهاء والمفسرون ، وهذا يمثل تجربة الأجيال التي ينضم إليها التاريخ ، وما جاء في القرآن الكريم والسنة ثابت لا يتغير على امتداد الزمان والمكان ، ومن هنا يتبين لنا أن التراث الإسلامي منه معطيات العقل الإسلامي سواء أكان أصحابه عربا أم فرسا أم تركا – موالي أم أمراء – وهو شيء مختلف عن تراث الفرعونية والفارسية والهندية والمجوسية .

وهكذا نرى أن التراث الغربي خليط غريب من الأساطير والوثنيات القديمة والسحر والخرافات ثم تفسيرات مضطربة لفهم الكون ونشأة الحياة وسير الأمم ، ولذلك فإنهم نظروا إلى الذات نظرة الاستهانة والاستخفاف وظنوا أن الأمر كذلك بالنسبة للإسلام مع أن الإسلام جاء ليعلن الانقطاع الحضاري بينه وبين ما قبله .

ورسالة الإسلام قد وضعت في إطار محكم وهي رسالة عالمية قوامها الرحمة والإخاء البشري وعدالة التوزيع .

لقد ظن الغربيون بما فعلوا أن الإسلام قد انتهى وعلت صيحاتهم تتحدث عن العلمانية المادية التي تتخلص من آخر صلاتها بالدين والأخلاق والتي تقبل منهج الغرب وتقاليده ، ولكن هذه القوى كانت واهمة لأنها لا تعرف حقيقة القوة الإسلامية ، وقد كان هدف الغرب قطع الصلة بالماضي والحاضر النصراني ولذلك صاحبت حركة الإحياء حملة عنيفة على الكنيسة وقيمها .

مميزات التراث الإسلامي :

يتميز التراث الإسلامي بأصول العقيدة التي يحددها القرآن الكريم الذي تكفل الله تعالى بحفظه فلا يمكن لإنسان كائن من كان أن يفر من هذه الحقيقة.

ولكن الدعوة التغريبية تهدف إلى نشر المادية ، والتاريخ الإسلامي كتب أحيانا بأقلام مسمومة فسرت التاريخ الإسلامي تفسيرا ماديا ، وحجبت التراث الإسلامي الأصيل وهاجمت الشخصيات اللامعة في تاريخ الفكر الإسلامي ، وقد أحلوا كلمة العروبة محل الإسلام في وصف الثقافة مع أن العرب لم يقوموا وحدهم بنشر الثقافة الإسلامية وإنما شارك فيها المسلمون من كل أنحاء العالم ولو أجزنا كلمة العروبة لقلنا : إنها عروبة في إطار الإسلام أو ثقافة عربية إسلامية كاملة .

ومنهج الحضارة الغربية في فهم التراث جعلها تعاني من الخواء الروحي والإفلاس القيمي مما عرضها للسقوط كما عبرت دراسات الناقد كولن ولسن في كتابه الإقليمي وسقوط الحضارة .

ولا تزال الآداب الأوربية حتى الآن ملتصقة بالأساطير اليونانية التي حظيت بالتحلي النفسي والأشكال الفنية الحديثة ، وهذه القيم تحمل العنصرية والصراع وحب القسوة والانغماس في المادة – وذلك كله أصبح سمتا للحضارة الغربية المعاصرة – أما المسيحية فهي صبغة باهتة ليس لها تأثير على المجتمعات الغربية .

إن التراث هو الهوية الثقافية للأمة والتي من دونها تضمحل وتتفكك داخليا والمكتبة الإسلامية من مزايا التراث ولكن المطلوب تيسير التراث للأجيال عن طريق أقلام تؤمن بعقيدة الأمة ولا بد من تحقيق المحفوظات تحقيق علميا .

والإسلام إنساني الوجهة عالمي النظرة وهو يجمع في ثقافته بين الجانب المادي والجانب المعنوي والإسلام له في الفن أساس وهو غلبة الأخلاقي على الجمالي ودون تضحية بالأخلاقي من أجل الجمالي .

ودعاوى تطوير الشريعة واللغة والقيم من مؤامرات التغريب الذي يرمي إلى هديهم الثوابت والضوابط التي وضعها الإسلام حماية للمجتمع .

التراث والمشكلات المعاصرة :

الذي يمعن النظر في المجتمعات الإسلامية المعاصرة يدرك النذر التي تعمل على هدم هذه المجتمعات ، والمشكلات التي تحاصر المجتمعات الإسلامية تشمل :

١- **المشكلة الاجتماعية:** إذ توجد نذر بهدم الأسرة الإسلامية لأن صور الحياة الغربية تستهوي الكثيرين ولذلك فإنه لا بد من إقناع المسلمين بأهمية المحافظة على الأسرة المسلمة وتحريم العلاقات الجنسية عن غير طريق الزواج لأن هذه هي تعاليم القرآن الكريم ، وإذا نظرنا إلى الغرب فإننا نجد الإحصائيات التي توضح الآثار الخطيرة التي تنتج عن عدم الالتزام بالزواج ومنها أن أكثر من ثلث مواليد ١٩٨٣ في نيويورك أطفال غير شرعيين وأكثرهم ولد لفتيات في التاسعة عشرة من العمر وما دونها وعددهم ١١٢,٣٥٣ طفلا بنسبة ٣٧% من مجموع مواليد نيويورك .

٢- **المشكلة السياسية:** نلاحظ أن الأمة الإسلامية عبارة عن دول متفرقة لا يجمعها شيء ولا بد من ترسيخ معاني الوحدة بين الدول الإسلامية ولا بد من إيجاد الصيغة المناسبة لإعادة وحدة العلم الإسلامي الروحية والفكرية والسياسية والاقتصادية من خلال دراسة القرآن والسنة إلى جانب دراسة الواقع التاريخي . والازدهار الفكري في الدويلات العباسية يمكن أن يكون أقوى لو صاحبته الوحدة السياسية لأن الوحدة السياسية تقوم أساسا على شخصية المواطن المسلم وتعميق انتمائه للأمة الإسلامية وتجاوزه للوطنية والإقليمية والقومية وتجاوزه على الأمية والعالمية والعلم هو الوسيلة المثلى لصناعة هذه الشخصية .

وقد كان التعليم الإسلامي في حلقات المساجد وبيوت العلماء في القرون الخمسة الأولى للهجرة ناجحا في ترسيخ العقيدة والشريعة ونشر اللغة العربية.

٣- **المشكلة التشريعية:** ويأتي السؤال الذي يحير الكثيرين من المسلمين - هل نبني أعمالنا على المذاهب الفقهية أم بالعودة إلى الكتاب والسنة ؟... إن الفهم القاصر والتشويش الظاهر ما هو إلا أثر من أثار التلقي المباشر من

القرآن والسنة دون ترشيد من العلماء والاجتهاد له شروط موجودة في كتب أصول الفقه وعلوم الحديث ولذلك فإن الاجتهاد في العصر الحديث تقوم به مجموعة متخصصة من العلماء المتخصصين في المجالات المطلوبة حتى تكون الفتاوى ايجابية في المجتمع المسلم .

٤- **المشكلة الثقافية:** لقد استخدم المستشرقون منهج البحث الغربي في دراسة الإسلام قرآنا وحديثا وثقافة وتاريخا وصدرت البحوث بشكل دراسات ظاهرها العلم والموضوعية والتجرد وباطنها التعصب والتعسف والجهل .

وقد دعا الإسلام إلى منهج البحث العلمي فقال : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء : ٣٦) .

ونهى الإنسان عن قول ما لا يعلم وأمره بالسعي في التحقيق وطلب البرهان والدليل ولذلك توصل المسلمون في العصور الأولى إلى مناهج دقيقة للبحث العلمي فاكتشفوا العلاقات لبيئية والقوانين الطبيعية والعلوم الرياضية عن طريق إتباع منهج البحث التجريبي الذي سبق الأوربيين إليه بعشرة قرون ثم أخذوه وطوروه حتى أثمر النتائج العلمية والصناعية الضخمة التي تتسم بها المدينة الغربية الحديثة .

منهج البحث التجريبي: لقد غفل الأوربيون عن أن التجريب الإسلامي تم في ظل التنظيم القرآني لأن القرآن الكريم هو الذي لفت الأنظار إلى الطبيعة ودعاهم للكشف عن أسرارها عن طريق الاختبار والتجريب باستخدام العقل والحواس موضحا أن الطبيعة مسخرة للإنسان الذي من واجبه التعرف على قوانينها للإفادة من هذا التسخير ومن ثم الحصول على القوة اللازمة لإعلاء شأن العقيدة فقال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (الأنفال:٦٠) .

وقد وضح العلماء أيضا مناهج للبحث في العلوم الشرعية والاجتماعية مثل أصول الفقه الذي يقوم على الاستقراء والاستدلال معا ، وعلم الحديث الذي يتعامل مع الرواية الحديثة سندا ومتنا ومنجزات البحث التاريخي .

٥- **المشكلة اللغوية**: لقد ارتفع الإسلام بلغة العرب إلى لغة الإدارة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والعلوم بعد أن كان لغة الأدب فقط.

وإهمال تراثنا القديم يقطع صلتنا بالقرآن والحديث ، ويمكن للهجات العامية من النمو على حساب الفصحى مما يمكن لتمزيق الأمة لأن للغة مكانة خطيرة في الوحدة الثقافية والهوية الذاتية .

والجامعات الإسلامية أمامها مهام خطيرة منها تكوين هيئة تدريس جامعية تكفي لسداد احتياجات التعليم الإسلامي وإعادة صياغة العلوم التربوية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية في ظل النظرة الإسلامية الكلية والكون والحياة والإنسان ولابد من إعادة صياغة العلوم الاجتماعية من تاريخ واجتماع واقتصاد وسياسة وتربية وعلم نفس وأدب ، ذلك لأن الإسلام كرم الإنسان وجعله خليفة في الأرض وله دور واضح في هذه الحياة ، ولذلك فلا بد من وضع استراتيجية للبحوث الإسلامية والنقد الواعي والتعليم الإسلامي وتقنية العلوم وضوابط الانفتاح على الثقافات المختلفة .

ويلاحظ أن عصر النهضة في الغرب لم يبدأ بالفعل في إيطاليا إلا بعد ثلاثة قرون من فتح العرب الجامعة الإسلامية في قرطبة بالأندلس ونشروا الترجمات العديدة للكتب العربية وقد شجعهم على ذلك القسيس ريموند .

والإسلام يسمح بتعايش جميل بين السماوية والروحانية الخاصة بعقيدة إبراهيم عليه السلام التي يؤمن بها اليهود والمسيحيون والمسلمون ، كما كان يسمح بالعلم التجريبي وإقامة أمة لا تشغلها الصراعات بين الأمراء والدول .

والتراث الإسلامي نقل للغرب بطريقة مشوهة والتهمت النهضة الغربية العلم التجريبي ونسبته إليها .

والتراث الغربي لا يفتقد الأساليب ولكنه يفتقد الغايات فليس لوجود الإنسان معنى إنساني .

والتراث الإسلامي يقوم على الاختيار وعلى الإيمان بالله تعالى وبرسالة محمد ﷺ .

واختيار الإسلام هو بمثابة الاستجابة للنداء الإلهي والاستسلام الكامل لإرادة الله تعالى الذي يحتم على الفرد معاونة الآخرين سواء في حاجتهم

المادية أو حاجاتهم الروحية .

وأي عمل يعمله الإنسان له أبعاده الروحية ، وأول واجب على الحاكم أن يوائم بين أعماله وبين الإرادة الإلهية غير ناظر لفائدة شخصية أو لمصلحة تتعلق بمجموعة معينة أو دولة معينة .

والتراث الإسلامي جاء من الوحدة العميقة التي تربط بين الحركة التي ترتبط بالأسلوب والأحداث ، والحركة التي تجعلنا نصعد من هدف إلى هدف أسمى وأن ترتب الأساليب كلها بانسجام لتوائم الأهداف الروحية المسلمة .

وهكذا نرى أن مفهوم التراث في المجتمعات الإسلامية يختلف عنه في المجتمعات الغربية ، وذلك لأن التراث الإسلامي له ثوابت لا يمكن تغييرها على امتداد الزمان والمكان لأن مصدرها خالق البشر وهي ثابتة في القرآن الكريم الذي تكفل الله تعالى بحفظه ، وحتى في الأمور التي يمكن تغييرها لا يجوز تغييرها إلا في إطار الأخلاق الإسلامية والمفاهيم القرآنية وهذا ما يضمن صلاح المجتمع وقدرته على أداء دوره في الحياة في تحقيق خلافة الله في الأرض ونشر الأمن والعدل والمساواة بين الناس جميعا ، وهذا لا يوجد في التراث الغربي .

ولكن إذا ما انبهر المسلمون بالآراء الغربية والتقدم الصناعي الغربي وساروا في الطريق الذي رسمه لهم الغرب فإنهم سيعانون من ضياع الهوية الإسلامية ، وبذلك يهونون على غيرهم كما يهونون عل أنفسهم وينتشر بينهم الشقاق والفرقة والصراع والحروب المتنوعة وسيكونون هم الخاسرون في كل المجالات ، وخاسرون أنفسهم أيضا في الدنيا وفي الآخرة ، والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين .

وعلى العالم الإسلامي أن يعيد صياغة نفسه صياغة إسلامية كاملة حتى يكون قادرا على إنقاذ نفسه وعلى إنقاذ هذا العالم الحائر الذي يسير في طريق الضياع والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ (الأنبياء :١٠٥) .

مفهوم التقدم في الحضارة الإسلامية

التقدم في الحضارة الإسلامية :

يعني السير إلى الأمام وإلى الأعلى في وقت واحد – وهو تقدم في الكم وفي الكيف على حد سواء – وكل خطوة تحقق أهدافا أسمى في سلم القيم الإنسانية وفي أداء المسلم لوظيفته تسمى تقدما ، وكل ما يحرر الإنسان من الفساد والأنانية والحقد ويسمى تقدما .

وهناك ارتباط وثيق بين التقدم المادي وبين الإيمان بالله تعالى الذي يشمل صلة الإنسان بالكون والحياة ، وكان للتقدم في الحضارة الإسلامية أثر كبير في البشرية كلها ، وقد اعترف بذلك "لوسيان سيديو" في كتابه **تاريخ العرب العام** فقال : خلال العصر الذهبي للحضارة الإسلامية تكونت مجموعة من أكبر المعارف الثقافية في التاريخ وظهرت منتجات ومصنوعات متقدمة واختراعات ثمينة تشهد بالنشاط الذهني المدهش في هذا العصر ، وكل ذلك تأثرت به أوربا بحيث ينبغي القول بأن المسلمين كانوا أساتذتها في جميع فروع المعرفة ، ولقد حاولنا أن نقلل من شأن المسلمين ولكن الحقيقة ناصعة يشع نورها من جميع الأرجاء وليس من مفر أمامنا نرد لهم ما يستحقون إن عاجلا أو أجلا .

خصائص التقدم في الحضارة الإسلامية :

يلخص المرحوم الدكتور مصطفى السباعي في كتابه (روائع حضارتنا) خصائص التقدم في الحضارة الإسلامية في الآتي:

١- أنها قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة .

٢- أنها إنسانية النزعة والهدف ، عالمية الأفق والرسالة .

٣- أنها جعلت للمبادئ الأخلاقية المحل الأول في كل نظمها وفي مختلف ميادين نشاطها .

٤- أنها تؤمن بالعلم في أصدق أصوله وترتكز على العقيدة في أخص

مبادئها ، فهي قد خاطبت العقل والقلب معا وأثارت العاطفة والفكر في وقت واحد .

٥- التسامح الديني العجيب الذي لم تعرفه حضارة مثلها قامت على الدين أو غيره .

التقدم في الحضارة الغربية :

يقوم على أساس المادة وحدها بعيدا عن التقدم الروحي والأخلاقي لأن الغربيين جعلوا أساسه التقنية فقط وقد جعلوا العدل للرجل الأبيض وحده – أما باقي الأمم فهم يرون أنهم أقل درجة من ناحية العنصر أو الكفاءة – ولذلك فهم يشجعون العنصرية والصراع بين القوميات وهم يستعمرون الدول لإبادة أهلها ويحرقون الكون ويفصلون بين العالم وخالقه .

وقد وجه الغرب كل أسلحته ضد المسلمين بقصد إذلالهم وحاول أن يتخذ من سلبيات الحضارة عاملا من عوامل الهزيمة للمسلمين ولذلك فإنه قد حجب عنهم كل إيجابيات الحضارة وبخاصة العلوم والتقنية وإلى جانب ذلك فإنه أغرق العالم الإسلامي في جوانب الفساد والتحلل ونشر المغريات ومنها الخمر والإباحية والانطلاق ونشر فكرة الصراع والحرب والإبادة بين الشعوب الإسلامية .

نعم لقد حقق الغرب طموحات علمية كثيرة وإنجازات كبيرة ولكن الفرد تحول إلى إنسان آلي لديه كل شيء مادي ومع ذلك فإنه يشعر في أعماق نفسه بالغربة والتعاسة والشقاء ، يقول "ألكسيس كاربل" في كتابه **الإنسان ذلك المجهول** : (من الأفضل كثيرا أن نوجه اهتماما أكبر إلى أنفسنا بدلا من أن نبني بواخر أكثر سرعة وسيارات تتوافر فيها أسباب الراحة ، يجب أن ننصرف عن الأبحاث الطبيعية والفسيولوجية ونتوسع في الأبحاث العقلية والروحية) .

ويقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه **الغزو الثقافي يمتد في فراغنا** (إن تقدم المدنية الغربية رائع بيد أن قيمته الإنسانية هابطة ما بقى البشر

على ظهر الأرض يأكل أبيضهم أسودهم ويستذل قويهم ضعيفهم ولا يحسنون إلا خدمة الإرهاب الصليبي الذي احتوى حصائصهم ووظائفهم المادية والمعنوية فإن كل إنسان منصرف الآن إلى الاهتمام بالأشياء التي تزيد ثروته وراحته في حين لا يوجد من يدرك أن الصفة النباتية والوظيفية والعقلية لكل فرد يجب أن تتناولها يد التحسين فإن صحة العقل والحاسة الفعالة والنظام الأدبي من المنظور الروحي تتساوى في أهميتها مع صحة الأبدان ومع الأمراض المعدية) .

مظاهر التقدم في الحضارة الإسلامية :

المجتمع الإسلامي يبني لأهداف يحققها كل فرد في حياته كما يبني لما بعد الحياة بل إن بناءه للحياة هو بناؤه لما بعد الحياة أيضا ما دام المسلم يريد بعمله هذا وجه الله تعالى وكل ذلك يطلب من المسلم جهدا أكبر لتحقيق التقدم بكل أنواعه أكثر من جهد الآخرين ، والغاية من هذا كله تحقيق سعادة الفرد وسعادة المجتمع في الدنيا والآخرة ، وفي ذلك يقول بعض الكتاب الأوربيين (لقد حول النبي محمد جماعة المؤمنين إلى مجتمع متحد يؤمن بالله وتحميه أعلى القيم الأخلاقية) .

الاستهانة بالحياة :

الاستهانة بالحياة في سبيل الله مظهر من مظاهر التقدم في الحضارة الإسلامية ومن ذلك ما قاله أنس بن النضر يوم أحد (يا سعد بن معاذ الجنة ورب الكعبة إني لأجد ريحها من دون أحد ثم استشهد) ، فوجد فيه بضعا وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسيف ومثل به المشركون فما عرفه إلا أخته بعلامة في يده ، ويوم بدر ألقى عمير بن حمام الأنصاري تمرات كان يأكل منها وقال : (لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة) ثم اندفع يقاتل حتى استشهد .

الزهد في المال :

والزهد في المال وغيره مظهر من مظاهر التقدم وقد رفض أعرابي قسم له الرسول ﷺ يوم خيبر قسما فقال : يا رسول الله ما على هذا اتبعتك ولكني اتبعك على ارمي هاهنا وأشار إلى خلفه بسهم فأموت فأدخل الجنة ، فقال : إن تصدق الله يصدقك ثم قاتل فقتل ، فقال النبي ﷺ صدق الله فصدقه.

ترك العصبية :

ومن مظاهر التقدم ترك العصبية الجاهلية التي تتمثل في قول شاعرهم :

لا يسألون أخاهم حين يتربهم　　　في النائبات على ما قال برهانا

ولذلك فإن النبي ﷺ حين قال : (**انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، تعجبوا وقالوا : يا رسول الله ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما ؟ قال : أن تمنعوه من الظلم فذلك نصره ظالما**) "متفق عليه" .

المسئولية الكاملة :

أصبح كل فرد في المجتمع الإسلامي يحس بمسئوليته الكاملة تجاه نفسه واتجاه أسرته وتجاه مجتمعه وقال في ذلك العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه **ماذا خسر العلم بانحطاط المسلمين** (أصبحت الطبقات والأجناس في المجتمع الإسلامي متعاضدة لا يبغي بعضها على بعض فالرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، والنساء صالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وأصبح كل فرد في المجتمع راعيا ومسئولا عن رعيته والإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته وهكذا كان المجتمع كله) .

كما أن المسلمين أصبحوا أعوانا على الحق وأمرهم شورى بينهم ، وأصبح المسلمون مستخلفين في المال لأن المال مال الله وهم يكتسبون من حلال فلا ربا ولا احتكار ولا سرقة ولا غش ولا استغلال ولا متاجرة فيما

حرم الله ، ثم إيجاد فرص للعمل لكل فرد في المجتمع وإيجاد فرص للتعليم لكل فرد أيضا ، إلى جانب ذلك حقوق الفقراء والمساكين من زكاة وصدقة وتعاون أفراد المجتمع كلهم على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان وصلة الرحم والإيثار الذي بلغ قمته عند الأنصار حتى قال فيهم رب العزة والجلالة ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر:٩) .

العدل الكامل :

ومن مظاهر التقدم في الحضارة الإسلامية العدل الكامل الذي لا يعرف العواطف البشرية وقالها القرآن الكريم واضحة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء:١٣٥) .

ولقد تعجب من هذه العدالة الرائعة الكثيرون في الشرق والغرب وقال أحد اليهود هذه أخلاق الأنبياء وقال جعد بن هبيرة لعلي بن أبي طالب : (يا أمير المؤمنين يأتيك الرجلان وأنت أحب إلى أحدهما من أهله وماله والآخر لو استطاع أن يذبحك لذبحك فتقضي لهذا على هذا فقال علي ﷺ : إن هذا شيء لو كان لي لفعلت ولكن إنما ذلك شيء لله) وهو بذلك يحقق قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٩٠) .

طلب التطهر :

ومن مظاهر التقدم أن يأتي إلى رسول الله ﷺ من اقترف ذنبا فيطلب منه أن يطهره بالحد مثل ماعز والغامدية ومثل هذا لم يحدث في أية حضارة من الحضارات القديمة أو الحديثة على السواء .

الجهاد :

وقال القرآن الكريم في ذلك : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ (النساء:٧٥) ، ثم للمحافظة على أماكن العبادة ولو كانت لغير المسلمين قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج : ٤٠) .

والجهاد في سبيل يهدف إلى إزاحة كل تربية وكل أخلاق وكل من ينافس في حكم الله بلون من الألوان حتى يكون الخضوع لله ولشريعته التي توضحها الكتاب والسنة .

ونتيجة لذلك أن يمكن الله تعالى لهم في الأرض وعليهم بعد ذلك أن يسيروا في الأرض طبقا لمنهج الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الحج : ٤١) .

دور المسلم في تقدم الإنسانية :

إن دور المسلم في تقدم الإنسانية هو الدور الأول في هذه الحياة فهو الذي يبدل ويغير في أشكالها وفي ارتباطاتها وهو الذي يقود اتجاهاتها ولا تمرد فهو سيد هذه الأرض ومن أجله خلق الله كل شيء وإليه وكل عمارة الأرض طبقا للمنهج الذي جاء به الأنبياء ووضح في القرآن الكريم .

وقد نبه إلى ذلك بريفولت فقال في كتابه **تكوين الإنسانية** : " العلم هو أعظم ما قدمته الحضارة الإسلامية إلى العالم الحديث بعامة ، والجدير بالذكر أنه لا توجد ناحية من نواحي التقدم الحضاري إلا ويظهر للإنسان فيها أثر الحضارة الإسلامية وإن أعظم مؤثر هو الدين الإسلامي الذي كان المحرك للتطبيق العلمي على الحياة وأن الادعاء بأن أوربا هي التي اكتشفت للمنهج التجريبي ادعاء باطل وخال من الصحة جملة وتفصيلا فالفكر الإسلامي هو الذي قال : انظر وفكر واعمل وجرب حتى تصل إلى اليقين العلمي " .

وهكذا : استطاع المسلمون أن يقودوا قافلة التقدم في هذا الكون الذي جعلوه ساحة لنشاطاتهم ومبدأ لحضارتهم يدينون بالعبودية لله ويتحررون من عبادة ما سواه ويضعون القواعد الأساسية للتقدم التي لا تتغير ولا نؤثر فيها تطورات الحياة ولا تنوع الآليات وبذلك أسعدوا أنفسهم وأسعدوا الملايين التائهة من البشر التي وجدت في الإسلام الأنس والطمأنينة والسعادة .

والآن : على المسلمين أن يتجهوا إلى الله تعالى يطلبون منه العون كي يتخلصوا من القيود المادية والمفاهيم الغربية وأن يعملوا على قيام النهضة الإسلامية الحديثة على أساس من القيم الإسلامية وحدها وبذلك تبقى قلوب المسلمين في حالة يقظة حساسة لا تغفل عن مراقبة الله ولا تجمد ولا تتبلد بالركود والغفلة والنسيان .

وبذلك يقودون حركة التقدم التي تسير بالإنسانية إلى طريق الأمن والأمان والطمأنينة والانسجام والسعادة الحقة .

حينئذ يرضون عن أنفسهم ويرضى الله عنهم ويفوزون في الدنيا بالسكينة والهدوء وفي الآخرة بجنة عرضها السماوات والأرض والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

مفهوم قراءة التاريخ

قام الغرب بتأريخ العالم من وجهة نظر ثقافته إلى ثلاثة عصور :

- العصر القديم : ويبدأ من بداية العالم إلى سقوط روما عام ٤٧٦م.
- العصر الوسيط : ويبدأ من سقوط روما إلى سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م.
- العصر الحديث : ويبدأ من سقوط القسطنطينية ويستمر إلى العصر الحاضر.

وطبقا لهذا التقسيم اعتبر المؤرخون الغربيين أن العصر القديم هو عصر الحضارات وأن العصر الوسيط هو عصر الظلم والاضطهاد لأن البابا في أوربا كان هو المسيطر والطاغي .

وهذا التقسيم إذا ما كان مقبولا من وجهة النظر الغربية فإنه غير مقبول من وجهة النظر الإسلامية ذلك لأن الأمجاد الإسلامية كلها وقعت في العصر الوسيط فقد ولد النبي ﷺ عام ٧٥١ م .

ومن وجهة النظر الإسلامية لا يعنينا في شيء سقوط روما أو غيرها لأننا ننظر إلى العصور القديمة على أنها عصور الجاهلية لا على أنها عصور الحضارات .

نعم كان هناك حضارات كالحضارة الفرعونية ، فالفراعنة بنوا الأهرام وأبا الهول وبرعوا في التحنيط وكانوا يصهرون الذهب والمعادن وما إلى ذلك وهذا لا يعني الكثير من وجهة نظر الثقافة الإسلامية ، ذلك لأنهم لم يستفيدوا من عبقريتهم العقلية الاستفادة المطلوبة ، فعبدوا غير الله تعالى وكانوا ملوكا مستبدين يستذلون الناس ويستعبدونهم ويقسمون المجتمعات إلى طبقات لكل طبقة حدودها وفي النهاية فهم لم يفيدوا أنفسهم والإنسانية بشيء ولم يحلوا مشكلاتها .

بينما يرى الغربيين أن هذا كل شيء لأنهم لا يريدون أن يتجهوا إلى غير هذا اللون من ألوان المدنية والثقافة .

ومن هنا فإنهم يرون أن الخليفة المسلم لم يكن إلا صورة من صور البابوات في أوربا يستمد السلطة من الله ثم يستبد ويظلم ويتجبر ويتكبر ، ثم

إن الثقافة الإسلامية في رأيهم لم تفد إلا في نقل تراث المدنيات القديمة إلى المدنية الحديثة دون أن تستفيد منه وفي ذلك ما فيه من ظلم واضح مقصود للثقافة الإسلامية ، وترتب على هذا من وجهة نظرهم أنه ينبغي على الشعوب الإسلامية أن تغفل هذه الحقبة التاريخية لتعود إلى العصور القديمة ، فعلى المصريين مثلا أن يرجعوا إلى عصور الفراعنة ليأخذوا منها المثل ويفخروا بما كان فيها من تقدم وأحيانا يتجهون اتجاها آخر فهم يريدون أن ينظر المسلمون إلى خالد بن الوليد مثلا نظرتهم إلى نابليون ليقولوا : إنه لولا خالد وأمثاله لما انتصر الإسلام ، مع أنه من وجهة النظر الإسلامية أن الإسلام خلق هؤلاء ولم يخلقوه ولو لم يوجد خالد وأمثاله لوجد غيرهم ليؤدوا هذا الواجب نحو الإسلام الذي اختاروه .

ودراسة التاريخ من وجهة نظر الثقافة الإسلامية تتطلب منا أن ننظر في القواعد القرآنية المقررة لتطبيق التاريخ عليها ونرى إلى أي حد هي واقعة ، فالقرآن الكريم يقول : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء:١٦) ، وبذلك يتبين أثر الترف والمجون في العصور المختلفة ويقول أيضا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ (النور : ٥٥) .

وبذلك يتبين أثر عبادة الله تعالى والاستقامة على منهجه في جميع المجتمعات قديمها وحديثها .

وبدراسة التاريخ دراسة تطبيقية نرى صدق هذه الآيات كما نرى كذب السياسة اليهودية النفعية التي يعبر عنها مكيافيللي: (بأن الإنسان يجب أن يصل إلى غايته من أي طريق فيكذب ويخادع وينافق لأن الغاية تبرر

الوسيلة)، وقد استطاع اليهود أن يجعلونا ندرس التاريخ من وجهة النظر الغربية – ومع أنها تضر بهم وبعقيدتهم إلا أنهم لم يهتموا بهذا – لأنهم يرون أن هذا سيقضي على الإسلام والمسلمين وهذا ما يهدفون إليه ، ولهذا فلقد أصبحنا ندرس التاريخ الإسلامي دراسة سريعة مشوهة وأصبحنا نعني بتاريخ أوربا وأبطالها وذلك يأخذ مساحة كبيرة من كتب التاريخ التي تدرس في المدارس والجامعات .

إن القرآن الكريم يقدم لنا أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية .

وهذا يتمثل في التأكيد المستمر على قصص الأنبياء وتواريخ الجماعات والأمم السابقة ووجود سنن وقوانين تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها وانتقالها من حال إلى حال ، والقرآن الكريم يلقي ضوءا إيضاحيا على ذلك فيقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت : ٥٣) .

والتفسير الإسلامي للتاريخ يستمد أسسه من آيات القرآن الكريم التي تعلو على الزمان والمكان ، فهو ينظر إلى الأحداث ويسلط الأضواء على مساحتها كلها فرؤيته للأحداث رؤية واقعية شاملة في امتدادها الزمني الماضي والحاضر والمستقبل فهو تفسير واقعي دون تبرير أو تحوير .

ومن خلال ذلك ينطلق إلى أهدافه ومثالياته وآفاقه فهو يسمي معركة حنين هزيمة وفرار فيقول : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (التوبة : ٢٥) .

ويخاطب مهزومي أحد فيبين لهم بأنهم كانوا السبب وراء تلك الهزيمة ويعلم المسلمين ألا يبرروا أخطائهم وينحرفوا في تفسير الأحداث والوقائع

فيقول : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَـٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (آل عمران : ١٦٥) .

كما يعلمهم أن يأخذوا من هذه الرؤية الواقعية للتاريخ دروسا في صناعة العالم المرتجي فيقول : ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ۝ ﴾ (آل عمران:١٣٩-١٤١) .

والتفسير الإسلامي للتاريخ ينظر أيضا إلى البعد النفسي الذي يغور في أعماق النفس البشرية يلامس نظرة الإنسان وتركيبه الذاتي والحركة الدائمة في كيانه الباطني ويمتد ليشتبك في العلاقات العامة الشاملة للمصير .

وهكذا نرى أن التاريخ يقدر في القرآن الكريم وحدة زمنية تتهاوى فيها الجدران التي تصل بين الماضي والحاضر والمستقبل وتتعانق هذه الأزمان عناقا مصيريا فتبدو حركة التاريخ التي يتسع لها الكون حركة واحدة تبدو يوم خلق الله السماوات والأرض وتبدو نزعة الإسلام الشمولية بانفتاحه الكامل على القوة الفاعلة في التاريخ ، العقلية والوجدانية والروحية والمادية .

والقرآن الكريم يرى اكتمال الإسلام بمحمد ﷺ وفي ذلك يقول الله تعالى :
﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَـٰمَ دِينٗاۚ ﴾ (المائدة :٣) .

وكلمة لكم تشمل الإنسانية كلها ، ومحمد ﷺ كان خاتم الرسل والأنبياء وبه اكتمل الإسلام ويمكن تقسيم التاريخ من وجهة نظر الثقافة الإسلامية على النحو الآتي :

التاريخ القديم : الجاهلية الأولى والإيمان دعوة ويشمل التاريخ حتى بعثة النبي ﷺ .

التاريخ الوسيط : من عهد محمد ﷺ الإسلام دولة ، والكفر دعوة .

التاريخ الحديث : الإسلام دعوة ، والكفر دولة .

ومشكلات البشرية تحلها دعوات الأنبياء عن طريق عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وقد أرسل الله تعالى الأنبياء لربط الناس جميعا بخالقهم سبحانه وعن هذا الطريق تحل كل المشكلات ويرتبط المؤمنون بأقوى رباط ويسيرون بالخير في طريق الخير ، وأن العقدة الأولى هي الإيمان بالله تعالى فإذا انحلت هذه العقدة انحلت كل العقد فإذا كانت الشيوعية في عهدها السابق مثلا تعالج مشكلة الفقر وحدها فعن طريق هذه المحاولة وجدت مشكلات كثيرة كالضغط والإرهاب وغسل المخ والقتل والسجن ومع ذلك فإنها لم تستطع أن تحل هذه المشكلة لأنها لم تتجه إلى الحل الحقيقي لحل هذه العقدة، ففي الإسلام الغني والفقير يعبدون الله وحده لا شريك له وبذلك يسهل حل المشكلة ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يعالجون من هذا الباب كل المشكلات الاجتماعية ، والقرآن الكريم كرر هذا المعنى لكل الأنبياء ، فنوح عليه السلام قال لقومه : ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (هود:٢٦)، وهود قال لقومه: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾(هود:٥٠)، وصالح قال لقومه : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود:٦١) ، وشعيب قال لقومه : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ (هود:٨٤)، وهكذا جميع الأنبياء ساروا على هذا المنهج في الدعوة إلى الله على بصيرة ولكنهم قوبلوا بالرفض والتهديد ،

ونلاحظ أن البيئات الجغرافية مختلفة والأعمال مختلفة والحياة العقلية والنفسية مختلفة قوم وقوم ، فإذا كان العلاج واحدا فذلك لأن العقيدة واحدة لأنها المشكلة الأولى في حياة البشر ثم يعالج بعد ذلك المشكلات الثانوية كنقص المكيال والميزان عند قوم شعيب وإتيان الذكران من العالمين في قوم لوط . وحين تنحل العقدة الأولى عقدة الشرك ويؤمن الناس بالله تعالى الخالق الرازق المحي المميت فإن المشكلات الثانوية تنحل في سهولة ويسر ، يقول الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين :** (انحلت العقدة الكبرى عقدة الشرك فانحلت العقد كلها وجاهدهم الرسول الجهاد الأول فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهي وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى فكان النصر حليفه في كل معركة وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم كافة وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة وفي اليوم رجال الغد) .

وحين ندرس تاريخ النبوات نجد أن المؤرخين الغربيين فصلوا النبوات عن التاريخ ووضعوه تحت علم اللاهوت ، وعلم اللاهوت يمزج بين الفلسفة والتاريخ ولذلك فهم اختلفوا في فرعون وموسى .

ويظهر أن اليهود تعمدوا أن يفصلوا كل شيء عن النبوات الأولى حتى لا تتعارض الآثار مع التوراة المحرفة وقد كان لليهود الدور الأكبر في طمس المعالم التاريخية للنبوات .

ومما يلاحظ أن الذين تولوا الكشف عن الآثار المصرية مثلا كلهم يهود، ولا يمكن أن يكون هذا مصادفة ، وقد اكتشفوا جثث ملوك من عصور قديمة تبلغ ثلاثة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح ، أما يوسف وموسى وإبراهيم فلا نجد آثارهم ، وليس من المعقول أن تغفل الآثار تاريخهم فالمصريين مولعون بكتابة كل جديد فلماذا لا نجد كلمة واحدة عن هؤلاء الأنبياء ...

القرآن الكريم تكلم كثيرا عن الأنبياء وما يقوله القرآن الكريم يتفق مع التاريخ ومن ذلك دولة سبأ فقد اكتشفت البعثة الأمريكية الآثار كما ذكرها القرآن الكريم (دولة سبأ الأولى التي قامت على التجارة ودولة سبأ الثانية

التي قامت على الزراعة) .

وقد دلت الآثار على أن مدنا كثيرة أنشئت على شكل مستعمرات لتستقبل التجارة ولم يكن ذلك معروفا من قبل القرآن ، وسد مأرب وما يستتبعه من قنوات تأخذ منه وهذه الأخبار يجمعها القرآن الكريم في كلمات قليلة فيقول : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ (سبأ:١٨) ، وأثبت المؤرخون أنهم غيروا طريق التجارة من البر إلى البحر للترف والظلم فحطمت أساطيلهم ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (سبأ: ١٩) ، وكتب كثير من العلماء عن هذه الدولة وأصبح المثل العربي " تفرقوا أيدي سبأ " مشهورا عند جميع العرب .

وأكثر الأنبياء ورودا في القرآن الكريم " إبراهيم وموسى " فإبراهيم أبو الأنبياء وموسى رائد سلسلة أنبياء بني إسرائيل الطويلة والدور الواسع المعقد المتشعب الذي لعبه كل منهما في ميدان الدعوة إلى الله الواحد الأحد والمساحة الزمانية والمكانية التي شغلاها هي التي تؤكد معطيات الآثار المعاصرة على أفرادها وشمولها كانت الأسباب الحقيقية وراء هذا التأكيد في المواضع المختلفة على تجربة هذين المبعوثين الإلهيين مع عدد من الجماعات .

العروض القرآنية :

ويعرض القرآن الكريم مواقف للأفراد والجماعات إزاء عدد من الأحداث التاريخية وردود الفعل التي أثارتها، وهناك عدد من التجارب التي مارسها أفراد عاديون سلبا كأصحاب الحجر وقوم لوط ، وإيجابا مثل أهل الكهف وأصحاب الأخدود وقادها ملوك وزعماء كبار مثل فرعون وقارون وذي القرنين .

وبعض آيات القرآن الكريم تتحدث عن المستقبل مثل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (الفتح:٢٨) ، وقد رأى الرسول ﷺ كثيرا مثل غزوة بدر وفتح مكة وعام الوفود .

والغرض من إيراد العروض التاريخية إثارة الفكر البشري والبحث الدائب عن الحق وتقديم خلاصات التجارب البشرية لتكون عبرا يسير على هديها أولوا الألباب، يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف:١١١) ، والقرآن الكريم ينظر إلى الإنسانية في التاريخ على امتداد الزمان والمكان على أنها وحدة فالوجود من ماء والناس كلهم من آدم وآدم من تراب ، يقول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون:١٢-١٤) .

فالفرقة بين الناس ليست طبيعية ، ومهمة الأنبياء إعادة الناس إلى الفطرة السليمة ، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يربط الأنبياء جميعا برباط واحد ثم يربطهم بمحمد ﷺ .

ولذلك كان من الخطر على المؤمن أن يؤمن بمحمد ﷺ ولا يؤمن بباقي الأنبياء يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ

عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (النساء:١٥٠-١٥١) ، لأنه سيقف أمام أصل ثابت بنيت عليه الإنسانية .

إن المسلمين يؤمنون بأن الدولة لا تقوم إلا على أساس الدين ، بينما الغربيين ينظرون غير هذه النظرة ويعملون على أن تكون نظرة المسلمين مثلهم ، فإننا نرى مؤسسات غربية كثيرة تسير في هذا الاتجاه حتى لا تتكون دولة إسلامية .

وقد أم رسول الله ﷺ الأنبياء جميعا في المسجد الأقصى ليلة الإسراء وهو يعتبر قلب الدائرة للحضارات الوسطى فكأنه تسلم الراية وارتفع إلى السماء .

وهكذا نرى المسلمين في العصر الحاضر لهم رسالة لا بد أن يؤدوها كاملة حتى يسيروا في طريق الحق والخير فينقذوا أنفسهم وينقذوا هذا العالم الحائر الذي يسير إلى الهاوية ، وهذه وظيفتهم التي انتدبهم الله تعالى إليها حتى يكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدا ويفوزون برضوان الله تعالى في الدنيا والآخرة " وهذه أمنية كل مسلم في هذه الحياة ".

الخاتمة

الإنسان المسلم يحس بأنه صاحب رسالة في هذه الحياة فقد خلقه الله تعالى ونفخ فيه من روحه وفضله على كثير من مخلوقاته وجعله خليفة في الأرض يعمرها طبقا لمنهج الله تعالى .

ولذلك فإن المسلم يحس بأن حياته لها أهمية كبرى وبأن له أهدافا واضحة يسعى إلى تحقيقها فيعمل في الدنيا ليكسب في الدنيا والآخرة على السواء، على عكس الإنسان في العالم الغربي الذي يعيش في حيرة ولا يحس بأن له وظيفة في هذه الحياة ولذلك فإنه يتساءل ... لماذا جئت ؟ ... وماذا أفعل ؟ ... وكيف أفعل ؟ ... ولماذا أفعل ؟ ... وإلى أين أسير ؟ ... وما المصير ؟ ... وقد قال هذه الأسئلة إيليا أبو ماضي في قصيدة له منها :

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت ولقد أبصرت قدامي طريقا فمشيت

وسأبقى حائرا إن شئت هذا أم أبيت كيف جئت كيف أبصرت طريقا لست أدري

وعقيدة المسلم تفسر له الوجود كله وتحدد له رسالته التاريخية فيه وهي ما تكاد تستقر في الضمير حتى تحرك صاحبها لتحقيق واقع محدد المعالم.

والإسلام عني ببناء النفس من الداخل أولا بحيث تكون صلته بالله تعالى دائمة وقوية ، وبذلك يرى المسلم نفسه مدفوعا إلى السير في الطريق الذي رسمه الله تعالى ، وقد استطاع المسلم أن ينشر رسالة الإسلام الكاملة المتكاملة على مستوى العالم كله عدة قرون ، ثم جاء الاستعمار العسكري والاستعمار الثقافي والاستعمار الاقتصادي والاستعمار السياسي والاستعمار الاجتماعي ليغير مفاهيم المسلمين ويغير سلوكهم بحيث يكون العالم الإسلامي بغير هوية ولا أهمية ولا قوة ، بل وبحيث يحقق للغرب كل أهدافه وفي جميع الميادين ، ولذلك غزانا الغرب بأفكاره التي أخذ ينشرها عن طريق وسائل الإعلام المختلفة وعن طريق المسلمين الذين رباهم على مفاهيمه المناقضة لمفاهيم الإسلام ، ثم مكن لهم في بلادهم بحيث تولوا القيادات المختلفة في جميع المجالات وساروا على نهج الغرب معتقدين أن الغرب هو التقدم وهو الحضارة وهو المدنية وعلينا أن نسير على نهجه في جميع

المجالات وإلا فإننا سنسير إلى الهاوية .

وأخيرا عمل الغرب على نشر مفاهيمه والسير على منهاجها عن طريق ما يسمونه بالعولمة التي تعني أن يسير العالم كله على نظام واحد في المفاهيم المختلفة في السياسة والاقتصاد والثقافة والسلوك الذي يتمشى مع ذلك كله ، والذي يحدد ذلك كله هو المهيمن الذي يستطيع أن يثيب وأن يعاقب وبذلك تحقق فينا قول النبي ﷺ : **(كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفا والمعروف منكرا؟ قالوا : وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون ، ثم قال : يقول الله عز وجل لأفتننهم فتنة تدع الحليم فيهم حيرانا)** "البخاري" .

وقد جاء الوقت الذي أحسسنا فيه بحاجتنا وحاجة العلم كله إلى فهم الإسلام من جميع نواحيه فهما كاملا صحيحا حتى يمكن أن نبدأ صفحة جديدة في حياتنا فنحقق رسالتنا نحو أنفسنا .

ونحو هذا العالم الحائر الذي لا يحس بأن له رسالة يؤديها فيهرب فيه الفرد من المجتمع عن طريق المخدرات ومن الحياة عن طريق الانتحار.

لذلك رأيت أن أوضح المفاهيم الإسلامية لبعض الألفاظ مع مقارنتها بالمفاهيم الغربية ، حتى نبدأ صفحة جديدة في حياتنا .

وبذلك نسير في الطريق المستقيم الذي نأخذه عن القرآن الكريم لأن القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا .

وبذلك نحقق رسالتنا كما حقق أسلافنا وهي أن الأمة الإسلامية هي خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتعمل على تحقيق وظيفتها في هذه الحياة .

وبذلك تؤدي رسالتها فيرضى الله تعالى عنها في الدنيا والآخرة ولمثل هذا فليعمل العاملون .

فهرس

كتب صدرت للمؤلف

١- أضواء على التربية الإسلامية .
٢- وظيفة المرأة في المجتمع الإسلامي .
٣- جامعات يوسف .
٤- الحدود في الإسلام .
٥- دور المرأة ومكانتها في الحضارات المختلفة .
٦- ماذا تعرف عن بديع الزمان النورسي .
٧- علم الإنسان في القرآن الكريم .
٨- الحضارة الغربية تسير إلى الهاوية .
٩- الإسلام يدلل المرأة .
١٠- معارك رمضانية فاصلة في تاريخ الإسلام .
١١- الفن بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى .
١٢- مفاهيم إسلامية .

كتب تحت الطبع

١- أضواء على التاريخ في الإسلام .
٢- الحكمة في التشريعات الإسلامية .
٣- لماذا أسلمنا ؟ .
٤- مكة المكرمة عند الهجرة .
٥- المدينة المنورة عند الهجرة .
٦- أوسمة إلهية .
٧- أوسمة نبوية .
٨- الترف ودوره في انهيار الأمم .
٩- الإتكيت (فن الذوق) .